

الفصل الأول

انبعاث الحركة العربية الحديثة وأدوارها

في عهد الدولة العثمانية

- ١ -

بدء الانبعاث قبل الدستور العثماني ومداه

مع شيء من التجوز يصح ان يقال ان امارات انبعاث الحركة العربية الحديثة قد بدت في القرن التاسع عشر ؛ وتمثلت بالحركات الاستقلالية في مصر وفلسطين واليمن التي حمل لواءها بعض امراء بماليك مصر ومشايخ فلسطين وأئمة الزيدية ، وبالحركة الاصلاحية الوهابية التي امتزجت بالمطامح السياسية وجعلت ابن السعود الكبير حامي هذه الحركة يزحف على بلاد الحجاز لتوطيد سلطان عربي جديد في القسم الشمالي من جزيرة العرب ، وبما انطوت عليه بصورة خاصة مطامح وحركات محمد علي الكبير من فكرة اقامة امبراطورية عربية فنية تضم مصر والشام والحجاز بل والعراق واطنه وما كان من مخالفه في سبيل بعض هذه المطامح مع الامير بشير الشهابي وبعض مشايخ فلسطين وامراء الخليج العربي ، وان كان الحافز في هذه الحركات شخصياً اكثر منه قومياً . وتمثلت كذلك بالحركة الادبية والعلمية التي ظهرت في سورية وابنان بعد منتصف القرن المذكور والتي بدت فيها المطامح القومية اكثر بروزاً وعمومية ؛ وكان من آثارها حركة شباب الجامعة الاميركية العرب وجمعية النهضة العربية والجمعية العربية في بيروت وصيدا والجمعية العربية الوطنية في دمشق ، ورابطة الوطن العربي في باريس ؛ حيث هذه المنظمات التي انشأها شباب وكهول مسلمون ومسيحيون مشتركاً او انفراداً تعمل بتحفظ وحيناً بسرية في سبيل ايقاظ الروح العربية وتحريك الشعور العربي ، والتذكير بأجداد العرب والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي او التام بالكتابة والخطابة ، عدا الاخيرة

التي كانت تتمتع بحريتها بسبب وجودها في باريس ، فنشر النشرات والرسائل في التنديد بالترك والاشادة بالاجاد واللغة العربية ، ودعوة العرب الى الاتحاد والتمرد والاستقلال ، وخاصة في البلاد الشامية . غير ان هذه الحركة ظلت ضيقة النطاق ضعيفة المدى والاطر ، غير مستمرة النشاط .

- ٢ -

الانبعاث الصغير بعد الدستور

ومع ما كان من امارات انبعاث الفكرة العربية وخاصة في الحركة الاخيرة ووضوح الفكرة القومية فيها فان من الحق ان يقال ان ظهورها قوية وواضحة وواسعة وعملية معاً قد كان نتيجة من نتائج اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وكرد فعل للحركة القومية التركية التي اشتدت كذلك بعد هذا الاعلان .

أثر الحركة التركية القومية

فان بعض شباب الترك ومنتورهم قد اعتنقوا الفكرة القومية قبل اعلان الدستور، وانشأوا جمعيتهم السرية التي كان اسمها - جون تورك - «تركية الفتاة» دليلاً عليها ، واخذوا يسعون في بثها بين المستنيرين ، ومزجوا دعوتها بالدعوة الى مقاومة استبداد السلاطين والعمل على اقامة الحكم في الدولة العثمانية على اساس دستوري يضمن للامة حريتها وحقوقها ، ويفتح امامها الآفاق ، ويزيل عنها كابوس الاضطهاد والجهل الذي اناخ عليها بكليله . وكان بعض شباب العرب ومستنيرهم مندجين في هذه الدعوة ، ومنهم من كان منتسباً الى تلك الجمعية على اعتبار انها جمعية سياسية عثمانية . ولعل كتاب طبائع الاستبداد العظيم للاستاذ الجليل الكواكبي من آثار هذا الاندماج ، ولا سيما ان السلطان عبدالحميد الثاني كان قد اعلن دستوراً فيه تلك الضمانات والمزايا عقب ارتقائه العرش عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٥م بمساعي بعض الرجال العثمانيين المستنيرين بزعامه مدحت باشا ، واشترك رجال العرب ونوابهم فيما كان من آثاره من منظمات حكومية ونيابية ، وتذوق مستنيرهم طعم الحرية والشورى ،

ثم اوقف العمل به وحكم الدولة حكماً استبدادياً ثقیلاً الوطأة .

فلما نجحت المساعي وأعلن الدستور للمرة الثانية عام ١٩٠٨ أخذ نشاط أركان جمعية تركية الفتاة التي توارت وراء حزب سياسي علني هو جمعية الاتحاد والترقي يزداد ودائرة نفوذهم تتسع ، وأخذوا يخطون خطوات واسعة نحو الاستيلاء على الحكم والهيمنة على الدولة ، كما جعلوا يبثون الفكرة القومية التركية ويثيرون عاطفتها في نفوس الأتراك وخاصة نفوس ناسئتهم ، مستهدفين كنتيجة لازمة لها إستعلاء العنصر التركي في بلاد الدولة . وقد كان بما عمدوا إليه إنشاء فروع وأندية للحزب في مختلف المدن العربية والشامية والعراقية وجعلوا أزمته في أيدي موظفين أو ضباط من الترك المتحمسين لغاياتهم وأهدافهم ، وأخذوا يدخلون فيها من أروا في دخوله فائدة من العرب موظفين وغير موظفين وشباناً وغير شبان لتكون لهم منهم أداة تأييد وتعضيد وتهدة وتقوية ، وقوى انتخابية لانتخاب من يرشحونه للمجلس النيابي ممن يضمنون مسايرتهم وولاءهم وقلة خطرهم ، حتى لقد بلغ استهتارهم بالعرب إلى ترشيح نواب ترك في بعض الأنحاء العربية ، وإلى التدخل في الانتخابات علناً وعنوةً لضمان انتخاب من يرشحونه . ولقد حاول السلطان عبد الحميد وبعض انصاره ومأجوريه الرجوع عن الدستور والتنكيل بالانحاديين ، فزحف محمود شوكة باشا العراقي التركي على رأس جيشه من سلانيك ودخل الأسنانة وتمكن من قمع الحركة وخلع السلطان ؛ ونتيجة لذلك استولى الانحاديون على الحكم فعلاً ، وغدت الدولة ودوايرها في العاصمة والولايات تحت هيمنتهم ، والتزموا طريقة عدم توظيف موظف ما تركياً أو غير تركي في وظيفة رئيسية بل وثانوية إلا بعد أن يقسم بين الولاء لحزبهم ، كما كان من شأن هيمنتهم أن اضطر كثير من الزعماء والناقدین إلى موالاتهم ، لأنه لم يكن يتيسر مصلحة ما ذات شأن تخص هؤلاء أو يبتغونها ما لم يحصلوا على تركية أو مساعدة من مركزهم أو فروعهم ؛ بل لقد مر دور كان الناس فيه يتقدمون بعرائضهم المتعلقة بمصالحهم وشؤونهم على اختلافها إلى مركز الحزب وفروعه وأنديته ، وحتى وقع في الأذهان أن هذا المركز وفروعه هي الحكومة الحقيقية ؛ وقد قوي الحزب بذلك كله قوة عظيمة ، وأخذ يسير نحو غاياته قدماً وجهراً ودون مبالاة ؛ فلم يلبث أن تنبه متوردو العرب من شباب وشيوخ إلى ما في هذه الغايات من خطر على كيان العرب ومساس بكرامتهم واستهتار بمصالحهم ،

وكان كثير من شباب العرب في مدارس الآستانه يجتصون في مقاعد الدرس بشباب الترك ويشعرون منهم بقوة التيار ، وكثيراً ما كان يحدث النزاع بينهم في صدد أهداف الحركة فيلمسون فيهم النيات المريبة ، فيزداد بها القلق ويقوى الحافز والتنبه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ظروف الدستور ، وما فتحه من آفاق الحرية ، وأحداثه من هزة ورجة وحركة وآمال ، وما انكشف لمتنوري العرب بفضل من أفكار الغرب وأحداثه وحركاته القومية بما كان ايضاً منبهاً وحافزاً لاغتناقهم الفكرة استهدافاً لانهاض الامة العربية وتجديد حياتها ، وتدعيم بتيانها ، والدفاع عن لغتها وحقوقها ، وتذكيرها بأجسادها الغابرة وقيمتها التاريخية والمادية والمعنوية لتتمكن هي الاخرى من البروز على مسرح الحركة القومية الحديثة التي جرفت غيرها من الامم .

دور الشام والعراق في الحركة العربية الحديثة

وهكذا يمكن ان يقال ان المسرح الاول الذي ظهرت عليه هذه الفكرة بارزة المعالم بثوبها الجديد كان اوساط العرب في بلاد الدولة العثمانية ، وخاصة في اوساط العرب الشاميين والعراقيين ، وبنوع أخص اوساط شبانهم ومنتوريهم التي تأثرت تأثراً مباشراً بإعلان الدستور وحركة الترك القوميين ونياتهم وتصرفاتهم . وقد خصصنا الشاميين والعراقيين بالذكر لان مصر وبلاد المغرب العربي كانت منسلخة عن الدولة العثمانية ومنكوبة بالاضلال الاجنبي الذي كان يحرص كل الحرص على الحيولة دون انتشار مثل هذه الافكار بالاساليب المتنوعة التي مرت عليها . ومصر خاصة مع اتصالها ببلاد الدولة وسرعة تأثرها اكثر من المغرب بأحداثها ونياراتها ، ومع بروز المظاهر والمعالم العربية فيها بروزاً قوياً لا تكاد تشوبه سائبة ، كانت العاطفة السائدة فيها هي عاطفة الفكرة الاسلامية اولاً ، وكانت تحت تأثير معنى الصكيان المصري المحلي ثانياً ؛ هذا بالاضافة الى بروز العنصر التركي والروح التركية في اوساطها العليا بروزاً من شأنه ان يحول قليلاً او كثيراً دون التنبه للفكرة القومية العربية والجري في مضارها ؛ وبلاضافة كذلك الى ما كان في اسلوب

الاستعمار الانكليزي وجهده في ابقاء مصر بعيدة عن مثل هذه التيارات ومنطوية في كيانها المحلي ، ومراقبة كل المراقبة في خطواتها العلمية والاجتماعية والسياسية . اما سكان جزيرة العرب ونوعي الحجازيين والنجديين واليمنيين وغيرهم فقد كانت اتصالاتهم بأحداث العالم العربي وتياراته ضعيفاً بصورة عامة من جهة ، وكانت حالتهم الثقافية والاجتماعية ومنازلهم الجغرافية لاتساعد على تأثرهم بالفكرة تأثراً ايجابياً سريعاً وقوياً من جهة اخرى ؛ باستثناء من كان من اهل هذه الديار في الاستانة وفي بلاد الشام والعراق حيث تأثروا بها كما تأثر اخوانهم الشاميون والعراقيون ؛ ثم لم يلبثوا أن قاموا معاً بدور خطير من ادوارها اثناء الحرب العالمية الاولى . وهذا ينسحب كذلك على من كان في الاستانة من شباب المغرب العربي ومصر حيث تأثروا بالفكرة واشترك بعضهم في ادوارها قليلا او كثيراً ، ومنهم من قام بدور بارز فيها كعزيز علي المصري .

- ٣ -

ادوار الحركة

ولم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة . فالفكرة في ثوبها الجديد طارئة ، وفي ظروف كان العرب على نسبة كبيرة من الضعف والتفكك والغبلة والجهل ، والاستغراق في معنى الوحدة الاسلامية والاخوة التركية ؛ وكان لا بد من ان يمر عليها ادوار حتى تصبغ سائفة مقهومة وراسعة الانتشار .

ومع ذلك فقد كان لقوة عناصر القضية العربية مفعولها في تقصير امد هذه الأدوار ، كما ان نشوب الحرب الكبرى ومسارعة العرب الى اغتنام فرصتها وقيامهم بدور خطير فيها كان له اثر غير يسير في ذلك ايضاً . والمتعمن في سير الحال يرى ان الفكرة قد مرت في عهد الدولة العثمانية في ثلاثة ادوار .

الدور الاول ومظاهره ومداه

ففي الدور الاول الذي امتد نحو اربع سنين ١٩٠٨ - ١٩١١ أخذت الفكرة تنتشر في اوساط الشبان المتنورين والسياسيين العرب . غير انها لم تكن مفهومة فيها صحيحاً في اول الامر إلا من فئة محدودة منهم . اما عند اكثرهم فقد كانت صورة مبهمة وخطوطاً غامضة من جهة ، وقاصرة على اصلاحات وحقوق محلية في صدد اللغة والوظائف والمرافق الثانوية ضمن نطاق الحكم العثماني والاخوة التركية العربية او ما كان يسمى حينئذ بالجامعة العثمانية من جهة اخرى .

على ان من الحق ان يقال ان منهج الاصلاحات المحلية والنهوض بالبلاد العربية لغة وعمراً وتعليماً وصناعة وزراعة وتجارة في نطاق الجامعة العثمانية كان منهجاً عاماً سارت عليه جميع الفئات التي اعتنقت الفكرة او صارت تلوكها حتى تلك الفئة القليلة الفاعمة ، وفي الدور الاول والدور الثاني من الادوار الثلاثة التي مرت فيها الفكرة والحركة العربية من بعد الدستور الى اواسط الحرب العالمية الاولى ؛ لان ظروف العرب الخاصة والعامة والسياسية والثقافية والمادية لم تكن لتساعد على غير هذا المنهج في هذين الدورين ، وكان هو المنهج الذي يتسق مع طبيعة الواقع ، والذي تبدو ضرورته الملحة بارزة لجميع الفئات .

البلاد العربية قبل الدستور

ولقد كانت شؤون الولايات العربية وغير العربية جميعها صغيرها وكبيرها ، تافها وخطيرها منوطة بالعاصمة ، وكان هذا مما يقوم عثرة كأداء في سبيل ترقية الشؤون المحلية المتنوعة في بلاد مثل بلاد الدولة مترامية الاطراف ، ومسكونة من عناصر مختلفة . وفي البلاد العربية كان التعليم في المدارس المتوسطة وما فوقها باللغة التركية حتى ان لغة تعليم « اللغة العربية » نفسها كانت اللغة التركية ، حيث كان يدرس في المدارس المتوسطة وما فوقها كتب موضوعة بالتركية ومطبوعة في الامتانة لتعليم اللغة العربية من نحو وحرف وادب اسوة بمدارس البلاد الاخرى المسكونة بالأتراك او السلاف او البوشناق او الارناؤوط او الشركس او الكرد .

ومن اغرب ما كان يقع وابشعه ارسال معلمين من غير العرب لتعليم اللغة العربية في مدارس البلاد العربية مما لا تزال آثاره باقية الى الآن في اسلوب المحضرين تكلماً وكتابة. وكان كثير من الموظفين في هذه البلاد حتى في اتفه الوظائف كتوزيع البريد وتعمير خطوط البرق وكتابة الديوان وضباط الدرك ومفوضي الشرطة وتسجيل النفوس، وجباية الضرائب من غير العرب الذين لا يعرفون لغة البلاد بما كان فيه تعطيل للمصالح وخلق للمشاكل. وكانت لغة المحاكم والدوائر الحكومية المتنوعة هي التركية بما كان يزيد في تعقيد اعمال الناس، فذلا عما فيه من عوامل جمود اللغة العربية وعمقها. وكان ابناء البلاد يذهبون لقضاء خدمتهم العسكرية المعتادة الى غير البلاد العربية ومنها ما هو ناء جداً احياناً فيشقون ويضنون وتنتطح الصلة بينهم وبين ذويهم؛ وكان كثير من اصحاب الاهلية والثقافة من ابناء العرب يرسلون موظفين وضباطاً الى غير البلاد العربية ومنها ما هو ناء جداً فتحرم بلادهم من خدمتهم لها، وكانت القوانين والانظمة والوائح تصاغ في الاستانة على وتيرة واحدة وترسل للتنفيذ الى الولايات دون ان يراعى فيها ظروف البلاد الخاصة فيكون من جراء ذلك مشاكل وتعقيدات ومفارقات. وكل هذا كان عاملاً في جمود الحركة العمرانية والثقافية وفي فساد جهاز الدولة وشله، وفي بؤس البلاد العثمانية بوجه عام.

- ٤ -

جمعية الاخفاء العربي

وفي الدور الاول من الادوار الثلاثة بل في اوله وعقب اعلان الدستور بمدة وجيزة انشأ بعض سياسي العرب في الاستانة جمعية الاخفاء العربي وجعلوا غايتها: السعي لاعلاء شأن الامة العربية وتحسين احوالها وتقوية كيانها، والتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي في النهوض بكيان الدولة عامة. وكان شفيق المؤيد الدمشقي من ابرز شخصيات هذه الجمعية والقائمين بها، وكان من القائمين معه بها عارف المارديني وشكري الابوي وصادق المؤيد وشكري الحسيني، والاخير مقدسي؛ وقد اصدت الجمعية جريدة باللغة العربية تنطق بلسانها وتحمل اسمها.

ومع ان هذه الجمعية لم تعمر طويلاً ، ولم تقم بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته عدا بعض حفلات لاستقبال نواب العرب فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بعالمها الواضحة في هذا الدور ، وتحفز العرب للانتفاع بالافتق الذي فتحه اعلان الدستور أمامهم ، والنهوض بكيانهم القومي . وفي اسم الجمعية وغايتها تؤكد لما قررناه آنفاً من صفة الحركة القومية ومداهها في هذا الدور.

طلاب العرب في الاستانة وأثرهم

ولقد كثرت في هذا الدور عدد طلاب العرب في الاستانة فأدى ذلك الى اتساع نطاق الفكرة والتحمس لها، حيث كان امكان للتكامل حولها ، وتبادل الاحاديث في صدها بين ابناء مختلف البلاد العربية ، وحيث اتسعت دائرة احتكاك شبان العرب بشبان الترك من جهة واتسعت دائرة الاتصال بالحركة السياسيّة العامة التي كانت في الاستانة زاخرة النيار من جهة اخرى .

ولقد كان شباب العرب في كل سنة يروحون الى بلادهم فكان في ذلك فرصة ومجال لتبادل الاحاديث وتنبه الاذهان الى الفكرة في اوساط الشبان وغيرها من الاوساط النيرة بالجملة وانباتها .

المنتدى الادبي وأثره

وقد اوحى كثرة الشبان والحركة السياسيّة العامة في الاستانة واتساع دائرة انتشار الفكرة العربيّة ونشاطها انشاء ناد عربي ، فانشئ المنتدى الادبي عام ١٩٠٩ ، فكان في انشاءه سد للفراغ الذي بدا من توارى جمعية الاخاء عن المسرح . ولقد نجحت حركته الى حد كبير ، وظل يزدهر وينشط في سبيل الفكرة والحركة القومية واهدافها الى سنة ١٩١٥ حيث اغلقت السلطة الحكوميّة الاتحاديّة نتيجة لتجهمها الذي بدا بعد اعلان الدستور بقليل واشتد بعد اعلان الحرب العالميّة الاولى اشتداداً مبيئاً للقضاء على الفكرة والحركة العربيّة والقائمين بها . ولعله كان من ام

مظاهر نشاط الحركة العربية ومغذياتها في الدورين الاول والثاني ومن اهم عوامل ازدياد ذلك النشاط واتساع دائرة الفكرة والتكامل حولها . فانه لم يلبث ان غدا بيتاً عربياً في العاصمة يلتقي في اهبائه وغرفه وبجالسه وحفلاته ابناء العرب في الاساتانه من نواب وطلاب وسياسيين وموظفين وزوار فيتبادلون احاديث الفكرة ويبحثون في خير الطرق والوسائل للانتفاع بالدور الجديد الذي انفتح بابه لهم حركة وبقظة واصلاحاً ، ودرء ما يمكن ان يحدق بالكيان العربي من اخطار ما كانت تستهدفه الحركة القومية التركية من الاستعلاء العنصري في الدولة ، ومركزاً للحركة والنشاط والدعاية القومية ، وبيئة تعمل على التذكير بالاجاد العربية والحقوق العربية ، ويتردد فيها اصداً ما يكون بين شبان العرب وشبان الترك ، ورجال العرب ورجال الترك من مواقف ومناظرات وجدل ومهازات في صدد الكيان العربي والحقوق العربية ، فيزداد مرجل الحماس العربي غلياناً ، ويشتد تعلق الشبان بالفكرة وتتضح معالمها واهدافها في اذهانهم .

وتأسس المنتدى بعد جمعية الاخاء وما كان من جيشان الفكرة العربية في شباب العرب ينطوي فيها كما هو واضح سرعة استجابة العرب ووعيمهم الى الفكرة العربية والحركة بسبيلها .

وقد اصدر المنتدى مجلة باسمه كانت مجال اقلام وتفئات شبان العرب وعلمائهم وشعرائهم وادباؤهم في كل ما له صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وامانيها ، وبالتالي مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها . وعنى صفحات هذه المجلة نشرت اولى القصائد والانشيد التي تشيد باجداد العرب وتعرب عن امانيهم ، والتي كان شبان العرب يرددونها ويتغنون بها في اجتماعاتهم الخاصة والعامه .

وقد كان عبد الكريم الحليل العاملي من ابرز الذين اضطلعوا بعبء المنتدى وحررته ، وقد اخير رئيساً له ، وكان شخصاً نشيطاً وداعياً قومياً قويا . وقد كان بروزه على مسرح المنتدى مؤدياً الى بروزه في مجال السياسة العربية العليا ، وكانت له اتصالات برجال السياسة العربية والتركوية في صدر الحركة العربية ، واتصل بمجال الطاغية في من اتصل بهم . غير ان هذا مكرهه لبعض ماآربه فمدله ثم بطش به مع من بطش بهم من شباب العرب ورجالاتهم . ومن كان يقوم بأعباء المنتدى وحررته ومجلته معه رفيق رزق سلوم الحمصي وجميل الحسيني المقدسي وعاصم بسيسو الغزي ويوسف سليمان حيدر البعلبكي وعزة الاعظمي البغدادي . وقد كان بعض نواب العرب ورجالاتهم وخاصة عبدالمجيد الزهراوي الحمصي وشكري العسلي الدمشقي يدعمون حركة المنتدى وحياته مما اسبغ عليه قوة وحيوية .

الكتلة النيابية العربية ومغزاهما

وبما كان في اخريات هذا الدور أن استطاع الفريق النشط من نواب العرب جمع سائر نواب العرب في كتلة نيابية عربية ، حيث تألف منهم في شهر آذار عام ١٩١١ حزب نيابي عربي للدفاع عن حقوق العرب في مختلف انحاء المملكة العثمانية بقطع النظر عن الوانهم الحزبية الاخرى ومقتضياتها . وهكذا سجلت هذه العزيمة تطوراً في الحركة العربية على مسرح سياسي رسمي وخطير اندمج فيه رجال العرب السياسيون البارزون الذين كانوا يمثلون مختلف الولايات العربية العثمانية من شامية وعراقية وحجازية ويمينية . وكان من ابرز القائمين بهذه الحركة الخطيرة المدى والمغزى شكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيد ورشدي الشمعة الدمشقي وسليم سلام البيروتي وروحي الخالدي وسعيد الحسيني المقدسيان .

ولقد كان هذا التطور ذا اثر قوي في قوة مركز العرب وبروزهم ، وكان له صدى في نفوسهم وفي نفوس رجالات الترك ، وكان يحدث احياناً في سبانه تشاد بين نواب العرب ونواب الترك الاتحاديين في صدد حقوق العرب وكيانهم ، حتى كان ذلك الحادث الخطير من تشاد بين شفيق المؤيد وطلعة احد كبار رجال الاتحاد والترقي على ما بقي في الذاكرة نتج عنه صفة شديدة من يد شفيق على وجه هذا الكبير الذي حاول ان ينال من كرامة العروبة ورجالاتها .

- ٥ -

الدور الثاني

ولم يمض على هذا النشاط إلا ثلاث سنين حتى انتقل إلى دور خطير وهو تأسيس الجمعيات السرية من ناحية ، وبروز حركات سياسية عربية عملية واسعة الشمول نوعاً ما من ناحية أخرى . وهذا هو الدور الثاني من الأدوار الثلاثة . وقد امتد نحو اربع سنين أيضاً ١٩١٢ - ١٩١٥ م .

عنصرى التنكيدات العربية

وتأسس الجمعيات السرية العربية بعد كما هو واضح مظهرًا خطيرًا من مظاهر سرعة تطور الفكرة العربية ورسوخها . فالحدث حول الفكرة العربية والحقوق العربية ضمن نطاق الجامعة العثمانية ، وفي إطار الاصلاحات المحلية لم يكن مسدود المجال بعد حتى يضطر العرب الى التكتّم والتستر في هذا المجال ، وهذا يعني أن الفئات التي أسست هذه الجمعيات استهدفت أهدافاً أبعد مدى وأشد خطورة من ذلك حيث رأت أن تعتمد الى التشكيلات السرية على نط الجمعيات السرية القومية الأوروبية بل والتركية الأولى ، التي اتخذت هذا السبيل للنضال في سبيل الوحدة أو الاستقلال أو كفاح الطغيان القائم . ومن الممكن أن يكون من الدوافع إلى ذلك ما أخذ يبدو من رجال الاتحاد والترقي وشبابهم وأنديتهم ومنظمتهم من نجمهم للحركة العربية أخذ يشند يوماً بعد يوم ، وما كان في سبيلها من نشاط الشباب العربي وحماهم للفكرة والاشادة بأجداد العرب والتنبيه الى حقوقهم وكيانهم ، وما كان من تكتل النواب واتساع دائرة الوعي في أوساط العرب النيرة في الآستانة والبلاد الشامية والعراقية . فأحرار العرب وشبانهم في الآستانة وأوا في ما لمحوه نذر شر حملتهم من جهة على التحفظ والتكتّم وأوا في ما كان من استهداف الترك القوميين للاستعلاء العنصري واستهتارهم بالعرب وحقوقهم ، وهينتهم المتزايدة على الدولة بوادر خطر حركت فيهم من جهة اخرى العزيمة على التفكير بخطوات وغايات قومية بعيدة المدى درءاً للأخطار ، وحفظاً للكيان العربي ، وتحقيقاً لما أخذت تصبو إليه نفوسهم من أجداد قومية .

ولقد كان شيء من هذا باعثاً على بروز الحركات السياسية العربية العملية أيضاً ، حيث رأى متنورو العرب من نواب وغير نواب وشبان وكهول وشيوخ أن سير الاتحاديين على الطريقة الخزبية والعنصرية والاستهتارية خطر على كيان العرب ولغتهم ومصالحهم وحقوقهم المخلتة حملهم على الاقدام على تلك الحركات التي سيجيء الكلام عنها بعد قليل .

على أن شدة وطأة الاتحاديين وهينتهم على مختلف شؤون الدولة وتسيير دفتها على الوجه الذي ذكرناه حركت في ذات الوقت فريقاً من الترك المتنورين أيضاً ، وحملتهم على تشكيل حزب معارض سموه حزب الائتلاف ، وجعلوا من غاياته

السير على سياسة تتسع للحقوق والأمانى المعتدلة للأتراك وغير الأتراك ضمن الجامعة العثمانية . ومن الجدير بالتسجيل أن هذا الحزب قد قوبل بالارتياح في الأوساط التركية المحافظة وفي أوساط العناصر غير التركية ، وأن فريقاً من منطوري العرب قد انتسبوا إلى هذا الحزب وانشأوا له فروعاً في بعض المدن العربية ، ووقفوا منه موقف المؤيد المناصر ، لأنه يتسق مع الرغبة التي انبثقت في أوساط العرب عامة في الإصلاحات المحببة ضمن نطاق الجامعة العثمانية ، وعدم بقاء المركزية الشديدة ومعارضة ما بدأ من الأتراك القوميين من هدف الاستعلاء العنصري ، وأنه كان له أثر إيجابي في إقدام من أقدم من رجالات العرب على تلك الحركات السياسية العملية .

- ٦ -

وليس من الممكن إحصاء جميع التكتلات السرية العربية ، فقد تعددت المحاولات في هذا الميدان . ولقد عرفت وذكرت أسماء عديدة كالجمعية القحطانية وجمعية العلم الأخضر وجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة . غير أن أهمها وأدومها وأكثرها بروزاً في الحركة العربية الأنتنان الأخيرة .

الفتاة والعهد

وقد أسس الفتاة شبان ساميون وعراقيون كانوا في باريس يدرسون في معاهدها العالية سنة ١٩١١ منهم محمد رستم حيدر البعلبكي وعوني عبد الحادي النابلسي وجميل مردم الدمشقي ومحمد المحمصاني البيروتي وعبد الغني العريسي البيروتي ورفيق التميمي النابلسي ونوفيق السويدي البغدادي . أما العهد فقد كان الداعي إلى تأسيسها عزيز علي المصري وكان من أوائل المنضمين إليها طه الهاشمي ونوري السعيد البغداديان .

ولقد كانت الفتاة عامة ، أي إن المتخرطين فيها كانوا مزيجاً من مدنيين وعسكريين وشبان وكهول ، في حين كان العهد منحصراً في نطاق الضباط تقريباً ولم يكن فيه إلا أفراد معدودون من المدنيين . وكانت كلتاها شاملة من ناحية

أن اعضاءهما مزيج من مختلف أبناء البلاد العربية ، ومن ناحية أن اهدف الذي استهدفناه هو مصلحة العرب القومية عامة .

والنقطتان الأخيرتان جديرتان بالتنويه من حيث التسجيل التاريخي وعموم الفكرة العربية . واقد كان عدا وذاك طبيعياً يومئذ . فالشباب العرب الذين اعتنقوا الفكرة واخذوا يسيررون في سبيلها في هذا الانجاء البعيد المدى لم يكونوا يشعرون بالمعنى الافليمي في صدها ، ولم يكن شعورهم إلا في جو أمة واحدة في كيان واحد . ومن الحق أن نقول إن هذا المعنى كان شاملاً لجميع الحركات التي قام بها العرب والجمعيات العربية التي انشأوها في عهد الدولة العثمانية ، وأن النشاط ضمن النطاق الافليمي إنما هو مظهر من مظاهر ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وأثر من آثار الاستعمار الأجنبي . وهذا يتسق مع المعنى الذي قررناه في صدد عناصر القضية العربية والهدف الذي تستهدفه الفكرة العربية الحديثة إطلاقاً ، ثم مع الهدف الذي استهدفه وما يزال يستهدفه العرب القوميون منذ ذلك الحين إلى الآن ، والذي يعد ما كان من عتوات في سبيله وجنوح عنه طارئاً غير أصيل في الفكرة العربية الحديثة حين انبعائها .

وتشكيل جمعية العهد العسكرية خاصة له معنى بارز في صدد ما قلناه من تطور الفكرة واتجاهها اتجاهها أبعد مدى وأشد خطورة من الاصلاحات المحلية الثانوية . فقيه معنى العزم على خطوات جديدة عملية والاستعداد للانتفاع من الفرص السانحة والمناسبات المواتية . وفعلاً فقد سارع من استطاع من ضباط العهد الشاميين والعراقيين وفي مقدمتهم عزيز علي المصري ونوري السعيد ومولود محلص وجميل المدفعي العراقيين الى الالتحاق بالثورة العربية الكبرى وأبلاؤا البلاء الحسن في تنظيم كتائبها وتسيير حملاتها .

مزيج الفناء وتشكيلها

ولقد سارت الجمعيات السرية في سبيل ضم الصالحين إليها واختبارهم واختيارهم على اسلوب ينطوي فيه ذلك المعنى البارز أيضاً ، حيث كان القائمون بها يتحفظون كل التحفظ ، ويتكتمون كل التكتم في أمر وجودها أولاً ، وفي مفاصلة من يقع عليهم الاختيار لضمهم إليها ثانياً بالرغم من كثرة الذين كانوا يظهرون الحماس للفكرة والاندفاع فيها ، ثم في أمر اتصاهم باخوانهم في صدد ما أخذوه على عاتقهم

من واجبات ثالثاً .

وكانت جمعية الفتاة مثلاً نحرض حرصاً شديداً على أن لا نضم إليها
الامن عرف بحسن الخلق والأمانة والكيان وقوة النفس والجرأة بالإضافة إلى
التشبع بالفكرة القومية والتحمس لها . وكان العضو يرشح من قبل خبير به منتسب
إلى الجمعية سابقاً . فإذا لم يكن في الهيئة من يعرف له صفات منطرة أو أخلاقاً
ضعيفة أحيل « للدرس » فتدرس أحواله من قبل شخص غير الذي رشحه ، ويختبر
بالمحادثة ويسأل عنه معارفه بشتى الاساليب ، فإذا أسفر الدرس عن الاقتناع بأهليته
أحيل « للمناقحة » فيفاتح بأساليب متنوعة يكون المتكلم فيها متحفظاً قادراً على
التراجع وسد الباب دون أن يتوك مجالاً لاكتشاف وجود الجماعة فعلاً أو الاحساس
بها ، فإذا أسفرت المناقحة عن الايجاب أعطيت له تفصيلات قليلة ثم دعى إلى « اليمين »
على الاخلاص لمبدأ الجمعية الذي كان « بذل كل جهد لأبصال الأمة العربية إلى مصاف
الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى » ثم على التضحية في سبيله بالنفس والمال ،
وكتان اسرار الجمعية والطاعة لأوامر هيئتها المسؤولة . ويكون كل ما عرفه العضو
المنضم بعد هذا هو اسم الجمعية والشخص أو الشخصين اللذين فاتحاه نهائياً وحلفاه
اليمين . فإذا اريد ابلاغه أمراً أو خبراً أو انتدابه لمهمة أبلغ بواسطة أحدهما أو
بواسطة مأمونة اخرى . ثم يكون شأن هذا العضو في الجمعية وميادين العمل تحت
رايتها رهنا بما هو عليه من نشاط وفتور وقوة شخصية وضعفها ، وبما يقوم به ، من
مهمات ويبدو منه من سعي في سبيل المرمى والمدى .

ومن الجدير بالتسجيل أن أسماء الجمعيات السرية الاخرى واسماء كثير من أعضائها
قد انكشفت في سياق تحقيقات الدewan الحربي في عاليه - لبنان - الذي أنشأه
جمال الطاغية في اثناء الحرب بسبيل القضاء على الحركة العربية ٩١٨ - ٩١٦ ولم
يمكن كشف اسم الفتاة بالرغم عن شدة المحاولات والارهاقات ، وبالرغم عن ان
نخبة من اعضائها اعتقلوا وشنقوا في هذه البلوى . وبما لا ريب فيه ان هذا اثر من
آثار اسلوب الاختبار والاختيار والضم والتكتم الذي سارت عليه ، ولقد كان من
اثر هذا ان أقدم شكري القونلي احد اعضائها على الانتحار حينما اعتقل ، وشدد
عليه بسبيل الرقوف على ما عنده من اسرار الجماعات السرية مفضلاً الموت على الافشاء
فقصده عرقه وسال الغزير من دمه ثم أدرك في آخر لحظاته وخفف الضغط عليه .

التعبير الفناء في عهد الرواة العثمانيين

وهذا الأسلوب الذي كان في الوقت نفسه يسبغ على الجمعية ثوب الهبة والخطورة والقوة ، ويحمل المنتهقين بها على الفناء فيها والمجازفة في أداء ما يعهد إليهم من مهامها وكتبان أسرارها مهما تعرضوا له من محن وأخطار استطاع القاتنون بجميعة الفتاة والعهد أن يضموا إليهم نخبة صالحة من الأعضاء امتاز كثير منهم بمثانة الخلق وسلامة الحكم ونشاط الذهن وسعة الأفق والاقدام وقوة الشخصية ؛ ذهب بعضهم شهداء أعزاء في سبيل العقيدة التي اعتنقوها والمبدأ الذي أقسموا له ، وبرز أكثرهم مع الزمن حتى احتل كثير منهم الصفوف الأولى لمختلف الحركات العربية وما يزال ، وحتى استطاع بعضهم ان يقوم بأهم ادوار هذه الحركات في مختلف ميادينها ومجالاتها وما يزال . ونذكر هنا من علق بالذاكرة من أعضاء الفتاة الذين انضموا إليها منذ تأسيسها إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ليرى القارىء مصداق ما قلناه :

عبد الغنى العريسي بيروت . الأبرعارف الشهابي دمشق . محمد المحصاني بيروت . محمود المحصاني بيروت . عمر حمد بيروت . توفيق البساط صيدا . عوني عبد الهادي نابلس . رفيق التميمي . نابلس . الدكتور احمد قدري دمشق . شكري القوتلي دمشق . معين الماضي حيفا . جميل مردم دمشق . فخري البارودي . ياسين الهاشمي بغداد . فيصل بن الحسين . زيد بن الحسين . نسيب البكري دمشق . فوزي البكري دمشق . سامي البكري دمشق . مولود مخلص بغداد . جميل المدفعي بغداد . علي جودة الأيوبي بغداد . تحسين قدري دمشق . زكي التميمي نابلس . محمد علي التميمي نابلس . محمد رستم حيدر بعلبك . سعيد حيدر بعلبك . يوسف سليمان حيدر بعلبك . ابراهيم حيدر بعلبك . رشيد الحسامي لبنان . محب الدين الخطيب دمشق . هبة الشهابي دمشق . اسماعيل الشهابي دمشق . فايز الشهابي دمشق . توفيق الناطور بيروت . بشير القصار بيروت . بشير النقاش بيروت . كامل القصاب دمشق . رضا الركابي دمشق . احمد مريود دمشق . أحمد الحسيني دمشق . صبحي الحسيني دمشق . خالد الحكيم دمشق . سعيد الباني دمشق . محمد الشريقي لاذقية . رشدي الامام الحسيني القدس . رشدي الشوا غزه . سليم عبد الرحمن طولكرم .

أمين ميسر حلب . عبد الوهاب ميسر حلب . شكري الشوربجي دمشق . أسعد الحكيم دمشق . حافظ كنعان نابلس . صدقي ملحس نابلس . عزة دروزة نابلس محمد اسماعيل الطباخ دمشق . عمر الأتاسي حمص . أحمد المناصفي بيروت . توفيق السويدي بغداد . إبراهيم هاشم نابلس . محمد العفيفي القدس .

قائمة المخرج التي سارت عليه الفئاة

ولقد ظل التحفظ والتكتم طابع الجمعية القومي الى نهاية الحرب العالمية الاولى وقيام الحكومة العربية الفيصلية في دمشق عام ١٩١٨ ، وكان من الهام هذا الطابع ان اعتبر المؤسسون الاولون انفسهم هيئة مركزية دائمة دون ما انتخابات دورية حتى بعد اتساع نطاق الجمعية بكثرة المنتسبين اليها . ولما انتقل بعض اعضاء الهيئة من باريس الى بيروت احتفظ المنتقلون لانفسهم بهذه الصفة مع ضم من كان في بيروت من الاعضاء البارزين . وقد كان للجمعية في المدن المهمة معتمدون فرديون ، وكان الاتصال بين المركز والمعتمدين والاعضاء الآخرين يجري في نطاق هذا الطابع ، حتى ان جل الاعضاء لم يكونوا يعرفون اعضاء المركز ولا المعتمدين شخصياً . واقتد اشتد هذا الطابع بعد اعلان الحرب ودخول الدولة العثمانية فيها فعلاً بسبب اشتداد نهم رجال الاتحاد والترقي الذين كانوا يتولون الحكم للحركة العربية وتعقب طاغيتهم جمال الذي عهد اليه بالقيادة العامة في بلاد الشام لرجال هذه الحركة واعتقال البارزين النشيطين منهم ، ومن بينهم عدد غير يسير من رجال الجمعية من اعضاء المركز وغيرهم مثل محمد الحمصاني ومحمود الحمصاني وتوفيق البساط وشكري القوتلي ورشدي الشوا ومعين الماضي وعبد الغني العريسي وعمر حمد وعارف الشهابي ويوسف سليمان حيدر وابراهيم هاشم وغيرهم .

على ان اشتداد طابع التكتم والتحفظ ، واشتداد بلاه الطاغية وجبروته لم يكن من شأنها ان يعطلا من نشاط الجمعية في هذه الفترة العصبية التي امتدت نحو ثلاث سنين . ففيها غدت دمشق مركزاً لهيأة الجمعية الادارية او بالاحرى لفتوها ، وفيها انتسب عدد غير قليل من شباب العرب ورجالهم اليها ، وفيها اتصلت

بالامير فيصل فانتسب اليها في من انتسب وتبني غايتها التي تطورت الى غاية انفصالية
استقلالية نتيجة لتطور الموقف السياسي من جهة وتطور موقف الحكومة الاتحادية
من العرب عامة ورجال الحركة القومية خاصة من جهة اخرى . ثم اخذ يتصل بوالده
في صدها . ولما قامت الثورة العربية ووصات حملة الامير فيصل مشارف الشام
الشمالية فادمة من الحجاز تمكن مركز الجمعية ومعتمديها من تسيير عدد غير يسير
من اعضاء الجمعية وغيرهم والحاقهم بهذه الحملة . وقد كان الامير فيصل قد قدم للشام
يمثل والده في مقر جمال في صدد الحملة المصرية ونجدة الحجاز فيها .

وكان ينزل في بيت البكري في القابون في ضواحي دمشق ، فاتصلت به الجمعية
بواسطة فوزي ونسيب البكري اللذين انضما اليها قبل وادخلته في عضويتها ،
وتمكن بعد ذلك من تحميله مهمة نقل غايات ومطالب رجال الحركة القومية الى
والده ، وتصوير ما ألم بالعرب من بلاء طاغية الاتحاديين مما يبدو اثره في منشور
الثورة الذي اداعه الشريف حسين وفي رسائل الحسين - مكهاهون على ما سوف
نذكره بعد . وقد توسط ادي جمال في القافلة الثانية التي حكم عليها بالاعدام من
رجال العرب ، وكان بينها عدد من اعضاء الجمعية فأخفق ، ولمح في الطاغية عين
القدر والشرف فكان ذلك باعثاً له على التسرع في الافلات والعودة
الى الحجاز حيث تمكن من خدعة جمال ونجح في عزيمته ولم تلبث الثورة ان اعلنت
بعد وصوله بوقت قصير .

- ٧ -

فروع العرب ومستبوره البارزون

اما حزب العهد فقد اسس في الاستانة في خريف عام ١٩١٣ وكان الداعي اليه
كم قلنا عزيز علي المصري ، وغاياته استقلال البلاد العربية استقلالاً داخلياً تتحد مع
الترك في تاج السلطان العثماني كاتحاد المجر بالنمسا على ان تبقى الخلافة العثمانية قائمة
والاستانة عاصمة لها . وانشئت له فروع في بيروت وحلب ودمشق والموصل
والبصرة ، واخذ المركز والفروع يضمون الصالحين من ضباط العرب اليه ،

وينشرون دعوتهم ؛ فلم يمض على تأسيسه إلا برهة وجيزة حتى امكن ضم جملة صالحة اليه منهم عدا عزيز علي المصري ونوري السعيد وطه الهاشمي ؛ ياسين الهاشمي بغداد ، مولود مخلص بغداد ، محمد اسماعيل الطباخ دمشق ، جميل المدفعي بغداد ، مصطفى وصفي دمشق ، شريف الشريف بغداد ، علي جودة الابوي بغداد ، حميد الشاذلي البصرة ، سليم الجزائري دمشق ، خالد الحكيم دمشق ، يحيى كاظم دمشق ، عارف القوام دمشق ، يحيى الدين الجبان دمشق ، صادق الجندي حمص ، امين لطفي الحافظ دمشق ، علي النشاشيبي القدس ، اسماعيل الصفار بغداد ، عبد الله الدليمي بغداد ، تحسين علي بغداد ، عبدالقادر سري دمشق ، علي رضا الغزالي دمشق ، رشيد الخوجه بغداد ، حمدي الباجه جي بغداد ، مزاحم الباجه جي بغداد .

ولقد ذكر صاحب كتاب الثورة العربية الكبرى أن عدد المنتسبين إليه في الأستانه كان في أوائل عام ١٩١٤ ثلاثمئة وخمسة عشر ضابطاً ولم يذكر مصدراً . وإذا كان من المحتمل أن يكون الرقم مبالغاً فيه فإن المتبادر أن عدد المنتسبين إلى الحزب قد بلغ رقماً غير يسير حينما نشبت الحرب العالمية الأولى .

وما ذكره صاحب الكتاب المذكور أن حكومة الاتحاديين لم تلبث أن شعرت بأمر هذا الحزب وتحسبت من عواقبه واعتقلت مؤسسه وحكمت عليه بالاعدام ثم أنحلت سبيله وأخرجته من بلاد الدولة ، وقررت نتيجة لذلك اتخاذ التدابير الحاسمة بتوزيع ضباط العرب في الأستانه إلى المناطق التركية المختلفة ، وإقصاء ضباط العرب عن مراكز القيادة في البلاد العربية ، والوقوف من الحركات العربية ورجالها موقف الشدة والصرامة : ولقد نفذوا ذلك فعلاً في الفرصة التي منحت لهم باعلان النفير العام والدخول أخيراً في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الالمان .

— ٨ —

الحركات السياسية العلنية في هذا الدور وظروف ظهورها

أما الحركات السياسية العملية والعلنية التي برزها العرب على المسرح في هذا الدور فهي (١) حزب اللامر كزبية (٢) الحركة الاصلاحية (٣) المؤتمر العربي في باريس .

واقده كانت هذه الحركات ذات خطورة جدية بالتنويه في صد الفكرة العربية القومية تمثل خاصة في غدو الحديث عن حقوق العرب وأما في العرب متردد الصدى من قبل جماعات مختلطة ، وبأسلوب أو صوت شعبي علني ، بعد أن كان أما في ورغبات ونفثات واصوات فردية أو تكتلات سرية ضيقة النطاق . وقد ساعد على ظهور هذه الحركات ظرف مهم ، وهو حرب البلقان ١٩١٢ = ١٩١٣ وخروج زمام الحكم من يد الاتحاديين وقيام وزارة محافظة ائتلافية أي منسوبة إلى حزب الائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والتوقي أو بالأحرى منسقة معه ؛ حيث اغتتم سياسة العرب ومنوروم الفرصة فقاموا بنشاطهم وحر كاتهم الثلاث المذكورة .

حزب الامر كزية ومزجه وقاط

وقده تأسس حزب الامر كزية في مصر عام ١٩١٣ م وكان من أبرز القائمين به جماعة من سيامي الشام مقيمون في مصر وهم رفيق العظم دمشقي ورشيد رضا الطرابلسي والدكتور شميل اللبناني واسكندر عمون اللبناني وسامي الجريديني اللبناني وحقي العظم دمشقي ومحب الدين الخطيب دمشقي . وكان رفيق العظم رئيسه واسكندر عمون نائب رئيسه وحقي العظم أمين سره . وقد سمي الحزب « حزب الامر كزية الادارية العثمانية » وجعلت غايته « بيان محسنات الادارة الامر كزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات اجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد الامر كزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية » ، ونص في نظامه على أن مركزه القاهرة ، وعلى جواز تشكيل فروع له في مختلف مدن وقرى الدولة العثمانية إذا ما وجد فيها عشرة يعتنقون مبدأ الحزب .

ومع أن مؤسسي الحزب عرب شاميون فإن الحزب بدأ ذا صفة شاملة للبلاد العثمانية على أنه كان في الحقيقة وظل حزباً عربياً ، وأثراً من آثار الفكرة العربية ومداهها . ولم تؤسس له فروع إلا في البلاد العربية ولم يندمج في حركته إلا العرب ، وإن كان وجد قبله وبعده من يعتنق فكرته ويسعى في سبيلها من الأتراك

المحافظين والمعارضين للاتحاد والترقي .

ولقد تمثل فيه مدى الحركة العربية الذي أثمرنا إليه قبل وكان طابع هذه الحركة في دورها الأول والثاني ونعني النهوض بالعرب وبلادهم وكفالة حقوقهم ضمن نطاق الدولة العثمانية : وكان رجاله مخلصين لهذا المدى إلى أن كثر الاتحاديون عن ناهج للعرب وأخذوا يبسطون برجالهم عامي ١٩١٥ - ١٩١٦ وقد نشط الحزب للتشكيل والتوسيع والدعاية فكان من أثر ذلك أن انضم إليه رجالات بارزون من سياسي العرب ونوابهم ومنتوريهم ، وان أخذ اسمه يتردد ودعوته تنتشر ، وبالأفراغ غير يسير في الحركة العربية ، وان تأسست له فروع عديدة في المدن العربية في الشام والعراق ؛ وظل هذا النشاط إلى ان ثارت الحرب العالمية ، واندمجت فيها الدولة العثمانية .

ومن الجدير بالذكر انه بالرغم عن ان الحزب لم يكن خفياً ، ولم يكن فيه ما يعد من الأسرار ، وبالرغم عن إعلان نظامه والدعوة اليه جهرة فإن فروعه التي تأسست في بلاد الدولة العثمانية قد تأسست دون تسجيل وترخيص حكوميين ، وكان نشاطها واتصالها بالمركز العام يجريان بشيء من التحفظ والتكتم . ويرجع هذا الى ما بدا من الاتحاديين الذين عادوا إلى الحكم من اشتداد التنجيم للعرب بسبب مطالبهم ومطامحهم القومية . وقد كانوا يرصدون حركات الحزب ونشاطه . فلما ساروا في خطواتهم التعسفية الباغية أثناء الحرب عن يد جمال كان رجال الحزب من اهداف تشكيلهم الشديد .

- ٩ -

الحركة الإصلاحية البيروتية ونشاطها

اما الحركة الثانية أي الحركة الإصلاحية فقد قامت في بيروت . ولعلها صدى من أصداء دعوة اللامركزية أو بادرة استجابة إليها كما يبدو من طابع مطالبها ومنهجها وتاريخ ظهورها . وقد بدأت باجتماع بعض أعيان المسلمين والمسيحيين البيروتيين بالوالي أدهم بك الذي لم يكن اتحادياً ؛ وكان ذلك في اواخر سنة ١٩١٢م ، حيث بينوا له ضرورة اصلاح الجهاز الإداري في الدولة . ورفع هذا الأمر

للدرد الاعظم كامل باشا الذي خلفت وزارته وزارة الاتحاديين على ما اشرنا اليه قبل . فأجاب هذا بطلب تقديم المنهاج الاصلاحى الذي يوتيه الأعيان . وحينئذ اجتمع جمع كبير من هؤلاء في بلدية بيروت في آخر شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٣ ورضعوا المنهاج المضروب وسلموه الى الوالى الذي ارسله بدوره الى العاصمة . وكان منهاجاً مفصلاً او بالأحرى مشروع دستور او قانون . وقد ارتكز على مبدأ اللامر كزية الادارية والمحلية بحيث يبقى ما يتعلق بكيان وسلطان الدولة وشؤونها الأساسية والعامه من خارجة وعسكرية وتشريعية واقتصادية في يد العاصمة ويدخل في ذلك تعيين رؤساء الدوائر العليا ، وتكون الامور المحلية من تعليم وزراعة وصناعة وتجارة وعمران وطرق واوراق من اختصاصات سلطة الولاية . وقد تضمن المنهاج ايجاب معرفة رؤساء الدوائر اللغة العربية ، ووجوب تعيين سائر الموظفين من ابناء البلاد ، وقضاء ابناء البلاد خدمتهم العسكرية المعتادة في داخل ولايتهم ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في جميع معاملات الدولة في الولاية ، وفي مجلس البرلمان ايضاً ، وتشكيل مجلس تمثيلي للولاية يتمتع بصلاحيه واسعة للقيام بمهمته ، وعين ما يجب ان يخصص لميزانية الولاية من ايراد . وفي جملة ما احتواه المنهاج ايجاب تعيين مستشارين اجانب لدوائر الولاية من رعايا الدول التي ترضاها الحكومة المركزية ، وتشكيل مجلس استشاري من هؤلاء المستشارين منضماً اليهم رئيس المجلس التمثيلي .

وكان احمد مختار بيهم وسليم سلام وايوب ثابت من ابرز القائمين بهذه الحركة التي كان لها صدى قوي في مختلف الأنتحاء الشامية وفي بعض الأنتحاء العراقية ، حيث ابرقت بروقيات التأييد للمطالب من الشخصيات البارزة والشبان القوميين في الشام ، وحيث ايدها الزعيم العراقي طالب النقيب وفريق من احرار العراق وشبابه

- ١٠ -

مؤتمر باريس ومناهة وتالجه

واما الحركة الثالثة اي مؤتمر باريس فقد انبثقت فكرته في اوائل عام ١٩١٣ في ذهن بعض شباب العرب فيها نتيجة على ما يبدو لاحتكاكهم بالغرب ووجودهم

في محيط أكثر حرية وأوسع مدى . وقد حفزتهم حالة الدولة العثمانية وما لمسوه من مطامع الغرب فيها ونيات الترك الاستعمارية إلى التجمع والتشاور مع سائر زملائهم ومواطنيهم في باريس وكان عددهم كبيراً يبلغ الثلاثمئة فاتفقوا على وجوب الدعوة إلى مؤتمر عربي عام يعقد في باريس لبحث الشؤون المتصلة بمركز الأمة والبلاد العربية في الدولة العثمانية ومعالجة أسباب وقايتها ونهوضها ، واختاروا لجنة تحضيرية مؤلفة من عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعلوف تأخذ على عاتقها الاتصال بالهيئات والشخصيات العربية بسبيل عقد المؤتمر وزمنه ومنهاجه . والأربعة الأولون من مؤسسي جمعية الفتاة أو بالأحرى أكثرية أعضاء هذه الجمعية في باريس مما يسوغ القول إن للجمعية نصيباً كبيراً إن لم يكن النصيب الأكبر في هذه الحركة .

وقد كانت هذه الحركة أهم الحركات الثلاث مدى ومظهراً وخطورة ودلالة على ما بدا من الفئات العربية النيرة من حيوية ونشاط في سبيل الفكرة العربية والخروج بها إلى مسرح السياسة العالمية ، كما أنها كانت أقوى أثراً وصدى من الحركتين السابقتين على ما سوف نشير إليه بعد . ومع ذلك فمن الحق أن نقيد أنها كانت صدى من جهة ومتممة من جهة أخرى للحركتين السابقتين كما أنها جرت في مجراها من حيث الرغبة في البقاء في نطاق الدولة العثمانية مع إصلاح جهازها على قاعدة الأمر كزية ، والنهوض بالأمة والبلاد العربية داخل كيانها ، وهو النطاق أو المنهج الذي لم تمكن ظروف العرب وأطوار حركتهم تسمع أو تدعو إلى الانحراف عنه .

وكانت أولى خطوات اللجنة التحضيرية للاتصال بمركز حزب اللامر كزية العام في القاهرة، وعرضها عليه تبني المؤتمر ورأسته على اعتبار أن الإصلاح الذي سيطلب به سيقوم على منهج الحزب . ولعل الباعث على ذلك أن الداعين كانوا شباناً وطلاباً وكان حزب اللامر كزية يضم رجالاً بارزين ، وكانت دعوة الحزب تتردد في البلاد العربية في أوساط واسعة نسبياً ، فرأت اللجنة ذلك من عوامل نجاح المؤتمر والانتفاء به إلى نتائج ملموسة . وقد وافق المراكز على العرض ، وحينئذ اذاعت اللجنة بياناً على العالم العربي في بلاد الدولة العثمانية وفي المهاجر جاء فيه :

« إن مناظرات الاجانب ومغامرات السياسة العامة قد اوفقتنا على استقراء ما يجري بشأن البلاد العربية وخاصة زهرة الوطن سورية ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالاضاد من لا يعنم ان ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية . فحدا بنا ذلك الى الاجتماع في هذه المدينة والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الارض المترعة بدم الآباء ورفات الاجداد من عداء الاجانب وانقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد واصلاح امورنا الداخلية على اساس ما يتطلبه اهل البلاد من قواعد المركزية حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا فينقطع بذلك خطر الاحتلال او الاضمحلال وتنتفي مذلة الرق وتحقت نامة الاستعداد ويظهر للاعبين بحياة الشعوب اننا امة تأبى الضيم ولا تستسلم للذل . وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون فتقد اليه وفود البلاد العربية والمهاجرين السوريين من مصر واميركا الجنوبية واميركا الشمالية والبلاد الاوروبية فتمثل فيه الامة العربية المنتشرة في افطار الارض وتحق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الامة في هذا المؤتمر ؛ حيث نبسط فيه للامم الاوروبية اننا امة متمسكة ذات وجود حي لا ينحل ومقام عزيز لا يضام وخصائص قومية لا تنزع ومنزلة سياسية لا تقرع ، ونصارع الدولة العثمانية بأن الامر كزية قاعدة حياتنا وان حياتنا اقدس حق من حقوقنا وان العرب شركاء في هذه المملكة شركاء في الحرية شركاء في السياسة وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء انفسهم » .

ومن ثم انتخبت الجالية العربية لجنة إدارية لتقوم بالعمل فوضعت خطة المؤتمر وما سيجري فيه من المباحث على مشهد من ابناء الوطن وبعض كبار الاوروبيين ويمثلي الصحف الاوروبية والاميركية . وهذه هي المسائل التي ستكون موضوع المذاكرة :

- ١ - الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال
- ٢ - حقوق العرب في المملكة العثمانية
- ٣ - ضرورة الاصلاح على قاعدة الامر كزية
- ٤ - المهاجرة من سورية والى سورية .

ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته الى حيث يتحتم عليها التصديق ويحق التنفيذ .

وبعد فاننا ندعو كل من يخفق قلبه لامة العرب صغيراً او كبيراً ان يلبي داعي الوطن لاسيما ارباب الزعامات في مقاعد الجمعيات ؛ فعليهم ان يعتمدوا اليهم ونتجه . فاما ان يتضامنوا إلى وفود المؤتمر . واما ان يبعثوا اليه بالرسائل البرقية والبريدية يظهرون فيها ارتياحهم حتى يدلي المؤتمر بمحبته وتستوثق قوته بقوة امته . وهنالك ينبثق اليقين فيطل على هذه الامة فجر الحياة من بين طبقات الغسق وركام الظلمات . .

وفي نصوص البيان تأييداً لما قلناه من ان المؤتمر تنمة وصدى للحركتين الاوليين ، ومن الحافظ على اهتمام القارئ به لجعل حزب اللامركزية يتبناه ؛ كما فيها دلائل حوية الفكرة والحركة العربية والمدى الذي وصلنا اليه في هذه المدة القصيرة . ويبدو منها كذلك ان قضية تصفية الدولة العثمانية كانت قد اشتد الحديث حولها ، وان سورية خاصة كانت اشد عرضة من غيرها لخطر الوقوع في براثن الاستعمار .

وانعقد المؤتمر في تاريخ ١٨ حزيران ١٩١٣ برئاسة عبد الحميد الزهراوي مندوب حزب اللامركزية ، وشهده مندوبون عن هذا الحزب وعن الجمعية الاصلاحية البيروتية ، والمنتدى الأدبي في الاسكندرية وبعض رجال وشباب العراق وسورية كما شهده مندوبون عن المهاجرين السوريين في اميركا بالإضافة الى اعضاء اللجنة التحضيرية التي كانت تمثل الجالية العربية في باريس . وقد عقد اربع جلسات ، والقيت فيه محاضرات في المواضيع الاربعة المذكورة في بيان اللجنة . وقد قرر مبدأ وجوب الاصلاح العاجل في المملكة العثمانية ، وحق العرب بالمشاركة في ادارة الدولة المركزية مشاركة فعالة ، كما قرر المطالبة بالسير في ادارة الولايات العربية على قاعدة اللامركزية ، وتأييد المطالب التي تضمنتها لائحة بيروت الاصلاحية . وقد حضر على رجال حزب اللامركزية والجمعية الاصلاحية قبول اي منصب من مناصب الدولة في حال عدم استجابة هذه المطالب إلا بموافقة جمعياتهم ، كما جعل قراراته منهجاً سياسياً للعرب وعدم مساعدة مرشح للنيابة عنهم إلا بعد تعهده بالسير عليه . ومع ان عدد المندوبين الذين قدموا إلى باريس لم يكن كبيراً فانهم كانوا يمثلون - ولو رمزياً - بلاد الشام والعراق والمنظمات العربية القومية التي اخذت تنشط في سبيل اهداف الفكرة العربية . ولقد ابرق للمؤتمر برقيات تأييدية عديدة

من مختلف أنحاء الشام والعراق ايضاً ومن قبل شخصيات سياسية بارزة ، وخاصة من الذين انضموا إلى حزب اللامركزية او اندمجوا في الحركة الاصلاحية ، بحيث يصح ان يقال ان المؤتمر قد نجح في حركته .

ولقد حرك هذا النجاح حزب الاتحاد والترقي الذي عاد إلى الحكم ، ولكنه راعى الظروف التي خرجت الدولة فيها منهوكة القوى من الحرب البلقانية فنجع إلى المداراة ، فأرسل أمين سره العام إلى باريس ليجتمع بوجالات المؤتمر ويتحدث معهم في مطالبهم ، ويطمئنهم بحسن نوايا حزبه . وكانت لقدوم الرجل اثر ايجابي حيث اتفق مع اقطاب المؤتمر على شؤون عديدة مما يطالب به العرب ، مثل جعل العربية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، والمام رؤساء مصالح الولايات بالعربية ، وجعل هذه اللغة معتبرة في المعاملات الرسمية ، وإناطة تعيين الموظفين الثانويين بالولاية وترك شؤون الاوقاف والاشغال العامة لمجالس الولاية ، وجعل مقررات المجالس العمومية وهي المجالس التمثيلية المحلية التي كان ينص على انشاؤها الدستور نافذة ، وقضاء ابناء البلاد خدمتهم العسكرية النظامية في مناطق قريبة من مواطنهم ، وتعيين مستشارين فنيين من الاجانب لدوائر الولايات الفنية كما تم الاتفاق على تعيين ثلاثة وزراء من العرب في الوزارة، وعدد آخر في مجلس الشورى ومحكمة التمييز والمشيخة الاسلامية ومصالح الوزارات الرئيسية ، وخمسة ولاية وعشرة متصرفين ، واثنين عن كل ولاية في مجلس الاعيان . ولم يلبث ان صدر مرسوم سلطاني في شهر آب ١٩١٣ فيه تثبيت خطوط الاتفاق إجمالاً .

وقد كان ذلك مما جعل سياسي العرب يستبشرون خيراً ، فذهب وفد من كبارهم فقدموا الشكر للصدر الاعظم الاتحادي ، وادب المنتدى مأدبة حضرها عدد من اقطاب الاتحاديين والعرب وخطب فيها خطباء من الطرفين مشيدين بالروابط الوثيقة التي تربط الشعبين ، واعلن بعض خطباء الاتحاديين العزم على تنفيذ الوعود المقطوعة . وقد ابرق لأقطاب المؤتمر فقدموا إلى الاستانة وقابلوا السلطان واعربوا عن تعلق العرب بعرشه ورجوا منه سرعة تنفيذ الاصلاحات ، وادب الاتحاديون مأدبة لهم تبودلت فيها الخطب كذلك ، وأكد خطباء العرب تعلقهم بالجامعة العثمانية وحسن نيتهم نحوها في ما طالبوا به من الاصلاح ، وأكد

خطباء الاتحاديين حسن نواياهم نحو العرب واستعدادهم للمضي في تنفيذ ما اتفق عليه . على ان موجة الاستبشار لم تطل . لأن الاتحاديين اخذوا يسوفون ، وقد كانت حرب البلقان التي كان لها أثر في ما بدأ منهم من مسيرة قد انتهت . وكل ما نفذوه تعيين خمسة من رجال العرب أعضاء في مجلس الأعيان والعدد هو نصف ما اتفق عليه ، وإنشاء مدرستين ثانويتين جعلت العربية فيها لغة التعليم ، وتوسعة في تعليم اللغة العربية في المدارس الثانوية مع بقاء تدريس اكثر المواد بالتركية . ولقد قبل رجال العرب الخمسة الذين عينوا أعضاء في مجلس الأعيان ، وكان بعضهم ممن اشترك في المؤتمر مثل عبد الحميد الزهراوي بالرغم مما تقرر من عدم قبول المناصب الا اذا اجيب مطالب الاصلاح ، فكان لذلك صدى غير مستحب بالرغم مما قيل من ان الزهراوي قد قبل المنصب بقرار حزبه وكوسيلة للمطالبة بتنفيذ بقية الوعود ، وادى ذلك الى الخلاف بين رجالات العرب وبالتالي الى شيء من الفتور في النشاط والاستبشار الذي بدأ فترة من الزمان .

- ١١ -

اعلانه الحرب ومحنة الحركة العربية الاولى

وقد أعقب هذه الأحداث نشوب الحرب العالمية ، واندماج الحكومة العثمانية فيها باتفاقها مع الامان واعلانها النفي العام وحالة الطوارئ في البلاد العثمانية ورسوخ قدم الحكومة الاتحادية . واقد دعي الشبان المتعلمون في المدارس العالية إلى ما سمي «الخدمة المقصورة» أي التعليم العسكري الذي يتهبأون به ليكونوا ضباطاً ، ودعى الشبان العرب من هؤلاء كغيرهم بطبيعة الحال ، وكان كثير منهم مندجماً في الحركة العربية ، فكان اجتماعهم في امكنة واحدة وخاصة في الاستانة ودمشق مما يسرهم الاستمرار في الاتصال والحديث والنشاط والحماس بسبيل الفكرة القومية وأهدافها ، كما ان تجمع أعداد كبيرة من جنود العرب تقدر بعشرات الألوف وعدد غير يسير من ضباط العرب يقدر بالألوف نتيجة للنفي العام مما كان يبعث في العرب القوميين آمالا

كبيرة يحققونها اثناء الحرب أو بعدها . ولم يكن أقطاب الانحاديين غافلين عن ذلك فأرأوا من جانبهم ان ظروف الحرب فرصة سانحة للقضاء على الفكرة القومية العربية والتنكيل برجالها فأقدموا على خطوتهم بواسطة طاغيتهم جمال الذي عينوه قائداً عاماً في البلاد العربية العثمانية .

وكان من خطواتهم الأولى بعثة الجنود والضباط العرب في مختلف أنحاء الدولة وجبهات الحرب ، ثم اعقب ذلك تشكيل الديوان العرفي العسكري في عاليه ، وتعقب رجالات العرب وشبابهم الذين برزوا على مسرح الحركة العربية ؛ فكان من نتائج ذلك تلك المأساة الدامية التي زهقت بها ارواح عدد كبير من اولئك الرجال والشبان بتهم محكمة أو خيالية وبمحاكمات صورية استعمل فيها أنواع الارهاب والتعذيب بسبيل الحصول على اعترافات أو أسرار مبدورة ، ولم ينج الا القليل ممن دخل في شباك ذلك الديوان ، ثم أعقب هذا عملية نفي وتشريد لطائفة غريبة من رجال العرب وأسرم . وهكذا انتشر جو شديد من الارهاب وقدم العرب ضحاياهم العزيزة الاولى في سبيل فكرتهم وحركتهم القومية . ولولا نشوب الثورة العربية الكبرى تحت راية الحسين لاستمرت المأساة واستفحلت ، وأكثت أضعاف ما أكلت من رجال وشباب ، ولكانت عملية النفي والتشريد اتسعت دائرتها اتساعاً خطيراً على ما لمس بوادره المراقبون .

وبهذا صار الموقف حاسماً بين العرب القوميين ومن هم بسبيلهم وبين الترك القوميين الذين كان زمام الدولة في أيديهم . ومن الطبيعي أن يكون للبغي الواقع أثر قومي وحاسم في شعور العرب ونفوسهم وأوساطهم بقياس أوسع كثيراً من ذي قبل ، وأن يهزها هزاً ، وأن يوجه من نجا من مشانق جمال وسجونته وتشريده من رجال الحركة العربية في وجهة أبعد مدى من الوجهة التي كانوا عليها ، وبعبارة أخرى إلى وجهة الانفصال عن الدولة وإنشاء كيان عربي مستقل ، واستغلال فرصة الحرب القائمة بكل طريقة ممكنة بسبيل ذلك . وقد خطا العرب إلى هذا الانجاء خطوتهم الحاسمة في ثورة الحسين الكبرى ، وهي الدور الثالث للحركة في عهد الدولة العثمانية .

من شهداء النهضة العربية



عبد الفتى العربى



تأف تالو



توفيق البساط



محمد الحمصانى



الشيخ حسن طباره



الامير عارف الشهاى



امين لطفى الحافظ



عبد الوهاب الانكلبزي



رشدي الشمعة

من شهداء النهضة العربية



سعيد عقل



عمر حيد



عبد المجيد الزهراني



شكري العلي



علي الارماني



جلال الدين البهاري



عبد القادر الجرجاني



محمود الحمصاني



عزة الحديدي

اربعة من الشرماء عقيب اعتقاهم



من اليعين - عمر حمد . توفيق البساط . عبد الغني العربي . عارف الشامي ، بجورون اجيناز
الصحراء في طريقهم الى الجزيرة العربية ، وهم متنكرون باللباس البدوية



جمال باشا

طغيانه جمال

ونستطرد فنقول إن الطاغية جمال الذي كان يحتفظ بمنصبه الوزاري « وزير البحرية » والذي كان يشغل بسلطانه بلاد الشام والعراق وكليهما « ولاية أذنه » قد استطاع بما احاط نفسه به من مظاهر السلطان والأبهة ، واصطنعه من وسائل الجبروت والقسوة أن ينشر جواً شديداً من الارهاب فاسى العرب في ظله عظيم العنت والبلاء والكرب والخوف ، وزاد ديوان عاليه وتحقيقاته ومطارداته ومآسيه الشدة شدة والبلاء بلاءً حتى لقد صارت القلوب نهلع من اسمه ، والبلد الذي ينزل فيه تهتز لمنزله ، وكان وجوده ورحلاته كأنها بلاء مسلط وسيف مصلت فوق الرؤوس يحار الناس كيف يدفعونه ويدعون ربهم باللطف فيهم منه ، ويتفنن الظاهرون في ضروب التزلف إليه جلباً لرضائه ودفعاً لسخطه .

وقد اختص لبنان بقسوته فأجاعه حتى صار الناس يموتون رفقاً على قوارع الطرق ومن الأطفال من كان يوجد ميتاً في المزابل وهم يبحثون عن حبات غير مهضومة من القمح والشعير في براز الدواب أو نفايات الطعام ، ولقد وصل من قسوته واستهتاره أن فرض نفسه ضيفاً على حافظ باشا المحمد عبد الهادي في جنين عقب إعدام ابن أخيه سليم الذي شتق مع من شتق من القافلة الأولى في بيروت بتهمة انتسابه إلى حزب اللامر كزية . ولقد بلغ من اغتراره بما اصطنعه من مظاهر السلطان والجبروت التي جعلته حاكماً بأمره مطاعاً في كل ما يرسم ، وأميراً غير متوج أن حدث نفسه بتوطيد الحكم المستقل أو شبه المستقل لنفسه على بلاد الشام ، وأن صار يقف من الوزارة موقف الاملاء والتحكم ، فكان ذلك بما أقض مضاجع الوزراء ، ولا سيما ان مرجل العرب قد غلا من قسوته ونصرفاته الباغية ونشبت ثورتهم في الحجاز ضد الدولة ، واخذت اليوادر تدل على الاستجابة إلى دعوتها من قبل ضباط العرب وغيرهم ، ولم يجدوا وسيلة إلى استدعائه ومجاورة تهدئه الجو إلا الحديعة فالتمسوا من الامبراطور غليوم استدعائه إلى برلين المشاورة ولم يكدر يغادر البلاد حتى عينوا خلفاً له .

وبما حدثني به امين التميمي وكان مفتشاً في الداخلية ، وقد عين عقب الهدنة للتحقيق في مذابح الأرمن ومآساتهم انه اطلع في اثناء مهمته هذه على برقيتين متبادلتين بين انور وزير الحربية ووكيل السلطان في القيادة العامة وبين جمال في صده اعدام من اعدم من رجالات العرب فيها الدلالة القوية على الجرأة المتناهية في الطغيان والاستهتار ، وحيث يفهم منها ان جملاً قد نفذ حكم الاعدام في شهداء العرب قبل الحصول على موافقة الوزارة وصدور إرادة السلطان التقليدية بذلك ، وقد جاء في برقية انور ان وزير العدلية خليل بك متذمر من اعدام جمال على تنفيذ الاعدام من درت إرادة سنية ، فكان جواب جمال إني اعرف ميوعة خليل بك وتعقيداته أما الارادة السنية فليس اسهل عليكم من تدبير أمرها . . .

ومن طريف ما وقع وبدل على نفس الموقف وقد اطلعت عليه بنفسي حينما كنت موظفاً في دائرة البرق والهريد ان السلطان رقي انور إلى رتبة الفريق الأول فأذاع هذا بلاغاً بذلك حسب المعتاد ، فما كان من جمال إلا ان ابوق بالتهنئة الى انور ووقع بتوقيع « الفريق الأول جمال » ، مما اضطر انور الى تغطية الموقف وتفادي النتائج فاستصدر إرادة سنية بلغها في نفس اليوم إلى جمال مهنتاً إياه بالمثل . .

واقدر كان في جملة ما وجهه من تهم ونخبوه من اسباب التنكيل الباغى الذي أقدموا عليه اندماج رجالات العرب الذين بزوا على مسرح الحركة العربية الاصلاحية والامر كزبة في مؤامرة سياسية اجنبية ضد الجامعة العثمانية ، مستدلين على ذلك بما كان من مطلب تعيين مستشارين أجنب في دوائر الولايات ، وما كان من عقدهم المؤتمر في بهو بلدي رسمي في باريس وعطف الحكومة الافرنسية عليه ، ومن اندماج عدد من وجهاء النصارى وزعمائهم ومثقفهم في هذه الحركة مع ما كان معروفاً من عواطف النصارى ومبولهم نحو الدول الأجنبية وخاصة نحو فرنسا وانكلترا وروسية .

ولقد يكون بين الذين قاموا بالحركة الاصلاحية البيروتية خاصة وبمؤتمر باريس كذلك من يميل الى فرنسا او يضلون معها ، غير ان بما لاشك فيه ان جل القائمين بالمؤتمر وبالحركة الاصلاحية والامر كزبة كانوا مخلصين كل الاخلاص لبلادهم وامتهم ومستقبلها كما كانوا صادقين كل الصدق في رغبتهم في الاصلاح والنهوض في نطاق

الدولة العثمانية . ولقد فطن بعض رجال المؤتمر الى ما يمكن ان يكون من استغلال حركتهم وعقدتهم مؤتمراً في باريس ومحاكمة رجال الحكومة الافرنجية لهم فصرحوا لوزير الخارجية الافرنسية في زيارتهم له بهذه الرغبة بلهجة حاسمة وحازمة . كذلك كان مما وجه من التهم وغبة القائلين بالحركة العربية في الانفصال عن الدولة ، والحق في هذا هو ان منهم القائلين بالحركة العربية من شبان وغير شبان ومن سربيين وعلنيين كان في البدء هو المنهج الاصلاحى اللامركزي او الاستقلال الذاتى . وغاية ما كان يذهب اليه بعضهم ان يكون العرب في الدولة العثمانية كالمجر في الدولة النمساوية قبل الحرب العالمية الاولى اي حكومتان تحت تاج واحد . وقد اخذ هذا ينطور الى الرغبة في الانفصال في اذهان بعض مؤسسي الجمعيات العربية السرية ورجال العرب القوميين البارزين الآخرين بعد ما بدا من الاتحاديين مسن نكث بوعود الاصلاح التي قطعوها واشتداد تجمهم للحركة ورجالها وبوادى خطواتهم نحو القضاء عليها منذ مبادئ الحرب العالمية .

- ١٣ -

الشيوخ والشباب في الحركة العربية

وقبل ان ننقل الكلام الى الدور الثالث نريد ان ننبه استطراداً على ان قوام التكتلات السرية الأقوى والبارز كان الشباب ، في حين كان الكهول والشيوخ قوام التكتلات العلنية الأقوى والبارز، مما هو متسق مع طبيعة كل منها . فالسرية ذات خطورة وخطر تتناسب مع حماس الشباب واستعدادهم للمجازفة ، ومسيرتها تجعل الاندماج فيها ايسر لعدم الحاجة فيها الى التحوط في المقاصد والغايات والنشاط والحركة . أما العلنية فانها بما يكون فيها من هذا التحوط تجعل الاندماج فيها على الكهول والشيوخ ايسر فضلاً عن حاجتها الى جمهرة مؤيدة لا تتيسر إلا إذا قام بأمرها ذوو نفوذ وزعامة مما لا يكون في الأغلب إلا للكهول والشيوخ . ومع ذلك فقد كان في السرية كهول وشيوخ ، وكان في العلنية شباب . وكان اغلب هؤلاء من رجال الجمعيات السرية . وقد كان الجيلان يعملان جنباً الى جنب

دون شعور بالفرق ودون ان تظهر بينها مظاهر الدفع والجذب والتنافس والتناظر التي توافق الجيلين عادة في مجالات الحياة ، وخاصة الحياة العامة . وهذه ظاهرة جديرة بالنسجيل من دون ريب . ولعل مردها إلى طبيعة الحركة التي كانت مجازفة ومطحاً أكثر منها مجال مناصب وقباه وديج عاجل ، والتي كانت حركة قومية جديدة بقطع النظر عن معنى الشباب والشيوخ وما بينهم من فوارق ومباينات إزاء حركة عنصرية استعلائية اتحد فيها الجيلان التركيكان ايضاً فأثارت النيران من احرار العرب من كلا الجيلين . ومن الحق ان نسجل في صدد هذه الظاهرة ان الشباب كانوا من المرونة في حسن الاندماج والمسايرة والعمل مع الكهول والشيوخ بحيث سهلت سير الحركة والالتقاء والتجاوب بين الجيلين في ساحاتها العديدة السرية والعلنية التقاء اخوة وتعاون وتضامن وتجاوب مصلحة قومية مشتركة . ولعل مرد هذا أو مرد شيء منه إلى أن فريق الشباب أو بارزهم كانوا أعضاء في الجمعيات السرية التي كانت تأخذ لنفسها صفة الموحى والمدير قليلاً أو كثيراً .

عبرة شباب اليوم وواجهانهم

ومها يكن من أمر وان طبقة الشباب قد استطاعت ان تفرض نفسها ، وأن تشغل حيزاً مهماً أو الحيز الأهم في الحركة والنشاط القومي ، وأن لا تستجدي مركزها من الكهول والشيوخ استجداءً ، وأن تجعل هؤلاء طوعاً أو كرها يقبلون هذا الوضع ويسايرونه . ولقد استمر هذا بحيث كان كذلك في غير عهد الخوف والسرية ، أو بالأحرى في عهد السعة والمناصب أي في العهد الفيصلي ١٩١٨ - ١٩٢٠ م ، بل وكانت الأمر فيه على العكس بحيث كان الكهول والشيوخ هم المتدمرون من تفوق الشبان عليهم في البروز وامتلاك زمام الامور ، والمضطرون إلى مسايرة الشبان والاستعانة بهم في توطيد مركزهم بينهم . وفي هذا عبرة قوية لطبقة شبان اليوم الذين يستجدون المركز من شبان أمس وشيوخ اليوم ، ويعجزون عن فرض أنفسهم بالجد والتكفل ويتدمرون من هؤلاء الذين لا يجودون عليهم ، ولا يفسحون لهم الطريق ! وإذا جادوا وفسحوا فدون ما يجب وعلى الوجه الذي يفرضون . نقول هذا عائبين مستعئين مع اعتقادنا أن شيئاً من اللوم واقع

على شبان الامس ، لاننا نخشى أشد الخشية من أن يخلو الميدان منهم وهو آخذ
بأخو وأخو السريع فلا يكون فيه من شبان اليوم من يشغل الفراغ ويحمل
العيب ، وقد يطول هذا أكثر مما ينبغي فتكون النكسة الأليمة الضارة بانصاحة
القومية .

ومن الحق ان نذكر أن شبان الامس لم يفرضوا أنفسهم بالكلام والتبجح
واللهو واستجداء فسح الطريق وإنما فرضوه بالجد والمغامرة والجلد والتضحية . وقد
تكون طبيعة وقتهم مما ساعدهم على هذا ، حيث لم يكن الترف ونعومة الحياة
متيسرين أو مطلباً جوهرياً كما هو الآن ، وحيث كانت تلك الطبيعة تدفع الشاب
للمرحلة من أقصى بلاد الدولة العثمانية إلى أقصاها - من الشام إلى البلقان أو اليمن
أو طرابلس الغرب أو بالعكس في سبيل وظيفة زهيدة راقية على ظهور البغال
والجمال ، وإنما في العراء والحمام ، ومكتفياً بالقليل الميسور من وسائل الحياة
ونعيمها ، وأين هذا من شبان اليوم الذين صار الترف والبذخ والنعومة مطلباً
وئيسياً عندهم لا يستطيعون أو لا يريدون تضحيته أو تضحية شيء منه ، ويرون في حرمانهم منه
نكبة كبرى . على أن هناك ما يعرض عليهم إذا رافقه شيء من الزهد في الترف
وشيء من الجلد والتحمل وهو كثرتهم كثرة فائقة ، وتفوق كثير منهم في العلم
والثقافة . فإذا لم يقدرُوا أن المطلب الجسم يحتاج إلى تضحية ووجدوا اقدام واذا
ظلوا قانعين بالتذمر والشكوى واللوم منهيين الموقف ومقتضياته من الجد والكفاح
والتكتمل ليستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم ويشغلوا الحيز الذي يجب ان يشغله ،
ويهبوا أنفسهم لملء الفراغ فانقسم الأكبر من اللوم وسوء العاقبة واقع عليهم .
ولا ينبغي أن يخطر بالبال أن دور النضال القومي قد انتهى أو انه ينتهي
بالخلاص من الاجنبي ، وانه ليس على الجيل الجديد واجب قومي كما كان على
الجيل السابق . فهناك ادوار نضالية ايجابية شديدة الضرورة في صدد تركيز حقوق
الامة واستكمال يقظتها ونهضتها ، وخاصة في صدد ما هي فيه من شدة الجهل والغفلة
بحيث تكاد تكون في واد والأفراد الذين يظهرون على المسرح سياسيين وحكاماً
وحزبيين في واد آخر . ولن تتحقق أهداف الفكرة القومية العربية ومثلها العليا
ولن تتخلص الامة بما هي فيه من ضعف البنية ، ونهريج المهرجين ، واستغلال
المستغلين وحكم الافراد والأسر وتلاعيبهم الا اذا أمكن تنظيم قواها وحشدتها

وتنبيهها واصلاحها ونشر العلم والثقافة بين جميع افرادها ورفع مستواها الاجتماعي والاخلاقي ، وهذا مجال نضال ايجابي عظيم اندي فسيح الارجاه يوجب على الجيل الجديد واجبات قومية خطيرة ، ولا يملأه الاالشبان ونشاطهم وتكلمهم وترسمهم الخطط العملية ودأبهم ، وكثرتهم هذه الكثرة الفائقة بالنسبة للجيل السابق تجعل الواجب عليهم ألزم وأسهل اذا ادركوه ونشطوا له ، واهم المهام اياه واكتفاؤهم بالتذمر والشكوى كما قلنا ضار بمصلحة قومهم بالاضافة الى ضرره بمصلحتهم .

- ١٤ -

الدور الثالث

ونريد الآن أن نتكلم عن الدور الثالث . ومنهج الكتاب لا يتناول الاسباب في حركة الثورة وسيرها ، وقد كتب غيرنا شيئاً كثيراً من ذلك فيه الكفاية أو بعضها . ولذلك سنكتفي بالتعليق على ما يقتضي التعليق عليه .

عوامل الثورة الرأسمالية وأثر الحركة القومية ورجالها فيها

لقد قيل إن العامل الاقتصادي الحجازي وخاصة مسألة التميمين والحج كانت من الحوافز القوية التي حفزت الحسين طيب الله ثراه على خطوته الخطيرة واتفاقه مع الانكليز على الثورة ؛ كما قيل إن الطموح الشخصي الأصيل فيه والذي اشتد بعد توسده منصب أمانة مكة كان الدافع له عليها . وقد قيل كذلك إن مما دفعه عليها حسبانته عواقب التشاد الذي قام بينه وبين الوالي الاتحادي وهيب باشا بسبب محاولة كل من الرجلين فرض نفسه على الآخر ، والذي انتقل الى الوزارة الاتحادية فأثار نقيتها عليه . وقد يكون في كل من ذلك نصيب من الصحة وأثر في الخطوة غير ان مما لا يتحمل مراءً أنه كان للفكرة العربية القومية والحركة التي قامت بسببها ، وما كان من أحداث خلال السنوات السبع التي سبقت المفاوضات والاتفاق أثر كبير فيها ، وإنما من أجل ذلك كانت تعبيراً قوياً وحاسماً عن تطور الاتجاه العربي والفكرة العربية تطوراً خطيراً . ولقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى ما كان من اتصال رجال الحركة القومية وجمعية الفتاة في الشام بفيصل وتحميلهم

إياه مهمة التعبير عن مطالب العرب وآمالهم إلى أبيه . ولقد كان الحسين نفسه في
الاستانة في ظروف إعلان الدستور ، وتأثر بطبيعة الحال بما بدا من نشاط عربي
وانتشر من فكرة عربية قومية ، ربما ظهر من بوادر نيات الترك وخاصة الاتحاديين
وكان نير العقل بعيد المضيح ، ثم صار امير مكة الرسمي ، وتعقب وهو في هذا
المنصب الخطير ما وقع من أحداث عربية ، وما كان من تجهيم الاتحاديين لها
وخطوتهم الحاسمة عقب اعلان الحرب إلى التكيل برجال العرب والقضاء على
الحركة العربية ، وما بدا منهم في هذا السبيل من قسوة وبغي . فلا جرم أن
يكون قد رأى أن الحرب قد تكون فرصة سانحة لانقاذ العرب وتحقيق أمنيتهم في
الاستقلال والحرية والكرامة . ولعله رجح أن تغلب الدولة العثمانية فحفره هذا
على اغتنام الفرصة السانحة . ولقد كان أنجال الحسين في الاستانة مع أبيهم وصار
بعضهم نواباً بعد أن استلم منصب أمانة مكة ، فما لا ريب فيه أنهم تأثروا هم
الآخرون بالحركة العربية ونشاطها في الاستانة وأحداثها في البلاد الأخرى
فكانوا عوناً لأبيهم في ما أقدم عليه من خطوة خطيرة مدفوعين بتأثرهم بطبيعة الحال
ولقد كان لنجده الثاني عبد الله « ملك الاردن الآن » ولنجده الثالث فيصل
« المغفور له ملك العراق » بنوع خاص جهد في هذه الخطوة . فقد كان الأول
مبعوثاً عن الحجاز في مجلس النواب بعد تعيين والده اميراً لمكة ، وشهد تطور
الحركة العربية قبل نشوب الحرب وبعده واتصل ببعض الجمعيات السرية وتبني
غاياتها ، ولمس من جهة أخرى ما كان من تجهيم الاتحاديين لها وسوء نواياهم نحوها
ونحو العرب ثم ما كان من تجهيمهم نحو والده فحفره كل ذلك على التفكير في
استسناح فرصة الحرب للخطوة الحاسمة ؛ حتى انه اتصل بكتشنر حينما كان يشغل
منصب المندوب السامي في مصر مرة وبستورس الذي كان يشغل في قلم الخبايا
الانكليزية فيها مرتين وتحدث معها في صدها ، وذلك بعد نشوب الحرب واندماج
الحكومة التركية في المعسكر الألماني وقبل بدء المراسلات بين الحسين ومكماهون
والتي انتهت إلى ذلك الاتفاق بنحو سنة ؛ فكان من المشجعين المؤثرين على ما جرى
من اتصال وتراسل واتفاق .

أما فيصل فقد انضم فعلاً إلى جمعية الفتاة السرية وتبني غاياتها وحمل مطلب
الحركة القومية إلى والده ، وكان من المعجلين على التنفيذ بسبب ما مني به هو

والده في الشفاعة بقافلة الشهداء الثانية وما تمسه في الطاعة جمال وزملائه من التصميم على السير في التنكيل بالعرب وتشريدكم بمقياس واسع .
وما لا ريب فيه انه كان للحركة العربية وتطورها وما كان بسبيلها من احداث اثر في ما كان من اقبال الانكليز على الاتفاق مع الحسين ؛ وإن كانوا أرادوا في الدرجة الأولى اخراج الحرمين الشريفين أولاً واخراج العرب الذين هم ركن قوي في دولة الخلافة ثانياً من سلطان الترك واثارتهم عليهم لتوهين قوتهم المادية والمعنوية داخل وخارجاً . فان قيام هذه الحركة وما كان بسبيلها من احداث وما قاساه العرب من شدائد وبلاء وما كان من تطوروا واشتداد شعور الخفق على الترك وانبثاق الرغبة في الانفصال عنهم نتيجة لها هو الذي جعل الانكليز يرون امكان نجاح الثورة وامتدادها الى خارج الحجاز وانتظام الحياء اخرى من بلاد الدولة فيها وزيادة رهن هذه الدولة وارتياكها .

أهداف الثورة

لقد احتوت رسائل الحسين - مكماهون التي قام الاتفاق عليه بين الانكليز والحسين على الثورة صدى قوياً لهذا الاثر وصورة واضحة لتطور الحركة العربية في استهداف الحسين انشاء كيان عربي مستقل واسع او بتعبير آخر في استهداف الاهداف الصريحة والحاسمة لما يمكن ان تستهدفه الفكرة القومية العربية في بعثها الجديد على اوسع نطاق .

ففي المذكرة التي ارسلها الحسين الى مكماهون مع الرسالة المؤرخة في ٢٨ رمضان ١٣٣٣ - ١٤ يوليو ١٩١٥ جاءت هذه الديباجة :

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا في الاعوام الاخيرة ان يعيشوا ويفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى ان تساعدهم وتعاونهم للوصول الى امانهم المشروعة ، وهي الاماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على اي حكومة اخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية



« الملك فيصل »



« الملك علي »



« الملك حسين »



« الامير زيد »



« الامير عبدالله »

وموقفهم من حكومة بريطانيا ، وانه بالنظر لهذه الاسباب كلها يرى الشعب العربي انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها او ممثلها على الاقتراحات الآتية :

ثم جاءت هذه الاقتراحات او بالأحرى هذا المشروع لمعاهدة عربية إنكليزية فضلاً عن ان الديباجة جاءت بمثابة ديباجة معاهدة تحالف إذا ما اسقطنا الفقرة الاخيرة منها :

اولاً : ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - اذنه حتى الخليج الفارسي شمالاً ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً على ان توافق انكلترا أيضاً على إعلائت خليفه عربي على المسلمين .

ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم احد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لأفضلية انكلترا الاقتصادية فيها، على ان يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً : إذا اعتدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر ان يلزم الحياد . على أن هذا الفريق المعتدي إذا وغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين ان يجتمعاً معاً وان يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

ثم اختتمت المذكرة بهذه الخاتمة :

هذا ، ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق والمحدثه على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مها كلفه الأمر فهو يروجو الحكومة البريطانية ان تجيبه سلباً او ايجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . واذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً فانه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء . وفوق هذا نحن عائلة الشريف نعتبر انفسنا

إذا لم يصل الجواب احراراً في القول والعمل من كل التصريحات والنوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي افندي «١» .

وعلي افندي هذا مندوب ارسله الانكليز للتحدث مع الحسين ، مما يدل على أن هذه الرسالة هي بداية رحمة مسبقة بأحاديث واتصالات غير رسمية ، وانها ارسلت لتكون المذكرة المطلوبة فيها القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الاتفاق . والفقرة الأخيرة نفسها تحمل هذه الدلالة .

والهدف القومي في المذكرة واضح وقوي وشامل في صدد مملكة عربية كبرى مستقلة استقلالاً تاماً ومتحالفة مع بريطانيا على قدم المساواة . وتتنظم جميع جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق وجزءاً من كيكيا - اذنه ومرسين - الذي كان يسكنه جمهرة غير قليلة من العرب ، وكان يعد متمماً جغرافياً لبلاد العربية .

وقد قصدنا ورد من العبارات افهام الانكليز أن مشروع المعاهدة هو باسم العرب جميعهم ومعبراً عن رغباتهم ، وليس هو اقتراح الحسين وحده . وقد كان هذا موضوع أخذ ورد في الرسائل الاخرى على ما سوف نذكره بعد .

١٥

ويبدو في النصوص أثر الاتصال بين الحسين ورجال الحركة العربية واضحاً ، سواء في الحدود أو في المواد الاخرى او في الخاتمة ، بل تكاد نقول ان المشروع او اكثره من وضعهم حيث يبدو الفرق واضحاً بين اسلوبه واسلوب الحسين المعروف . ولقد ذكر انطونيبوس في كتابه يقظة العرب «٢» انه اطلع على بيان عند الملك فيصل قال له عنه انه المطالب التي وضعها رجال العهد والفتاة في دمشق وطلبوا منه ايصالها الى والده وحمله على سؤال الانكليز عما إذا كانوا يوافقون عليها . وقد نقل البيان في كتابه وهو خلاصة المشروع المرسل للانكليز سواء في الحدود او في الشروط الاخرى .

«١» المقصود من الفقرة الأخيرة استرداد الحرية . والنص منقول عن كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ج ١

«٢» نقل هذا الكتاب الى العربية من اصله الانكليزي علي حيدر الركابي .

والخاتمة ذات خطورة خاصة تدل على ان الحسين وانجاليه ورجال الحركة العربية المتصلين بهم قد عزموا على العمل في سبيل اهدافهم بكل الطرق وعلى طرق ابواب اخرى في هذا الشأن إذا لم تقابل مقترحاتهم من بريطانيا بالقبول .
وفي رسائل الحسين الاخرى التي ناقش فيها التعديلات المقترحة للحدود المطلوبة يبدو ما ذكرناه واضحاً ايضاً حيث جاء في رسالته المؤرخة في ٢٩ شوال ١٣٢٣ - ٩ سبتمبر ١٩١٥ الفقرات التالية :

ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن البرود والستردد اللذين ضمنها كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله ان البحث في هذه الشؤون إنما هو اذاعة للوقت وان تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها ؛ يعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا او على النفور او على شيء من هذا القبيل . فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد تتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود ، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد . وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ، ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك . وهم يرون أنه من الضروري جداً ان يتم تنظيم الأراضي المجزأة ليعرفوا على اي أساس يؤسسون حياتهم كيلا تعارضهم انكثرا أو احدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي الى نتيجة معاكسة الأمر الذي حرره الله . وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا في تلك الحدود مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات والقاب يطلقونها عليها (يريد اسماء على الاغلب) . أما الخلافة فان الله يرضى عنها والناس يسرون بها . وانا على ثقة يا صاحب الفخامة انكم لا تشكون قط بأنني لست شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأمره يعتقد انها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية ...

ولقد ذكر مكماهون في رسالته الجوابية على الرسالة الاولى « أن بعض العرب في الاقسام المطلوبة لا يرغبون في مساعدتنا بل ويقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والاتراك اي للهدامين والظالمين » فأجاب الحسين على هذا في الرسالة الآتية

الذكر بما يلي : « وأود هنا يا صاحب الفخمة ان أؤكد لكم بصراحة ان كل الشعب ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعمدون اطفالكم وكنيا وامانيا ينتظر بقارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقعة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم وحمائيتهم من كل أذى وخطر، مما يبدو فيه ما ذكرناه واضحاً كذلك.

وقد جاء ذلك التعبير وأثر تلك الاتصالات بأروين كذلك في منشور الثورة الذي أذاعه الحسين والمؤرخ في ٢٥ شعبان ١٣٣٤ - ٢٦ يونيو ١٩١٦ بقطع النظر عما فيه من الاسباب في الحملة على الاتحاديين والتنديد بخروجهم على الدين وتقييدهم سلطة الخليفة وتوكيد الاخلاص للخلافة والدولة العثمانية ؛ وتقرير أن ثورته ضد الاتحاديين الذين اغتصبوا الحكم وتسلطوا على الدولة بما يكاد يغطي عليها ؛ حيث جاء فيه ، وأما ما خصوه به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد . حادوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بإبطائها من المدارس ومنعها من الدواوين والمحاكم . وأصدروا بذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضة شديدة ونفروا عنها في كتبهم الجديدة . وقد أمكنتهم فرصة اعلانهم الاحكام العرفية في البلاد من تنفيذ كل ما يريدون في العرب فظنقوا بقتون ويصلبون كبراء ونوابغ ورجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أبواب المعارف والافكار وحمله الأفلام وبارعي الضباط . وآخر ما وصل إلينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك انهم صلبوا في الشام واحداً وعشرين رجلاً في آن واحد منهم شفيق المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط العكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك الانكليزي وتوفيق بك البساط . وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهراً ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم إن لغتنا لغة الاسلام فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها ، وان لنا في المملكة حقوقاً شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها . ثم إنهم صادروا اموال من لا يحصى من الناس . وعمدوا المملكة إلى كثير من الأسر الفنية والمعزوب عليها لأسباب سياسية فأخرجوهم من ديارهم واموالهم وعقارهم وابعدهم نساءً واطفالاً الى بلاد الاناضول بلا كافل شرعي فمتكوا حرمة المحدرات من النساء المؤمنات اللواتي لا يعرفن السياسة ، وعرضوا اطفالهن للهلاك بسين ايديهن في طريق النفي الطويل . ولعلمهم يريدون ان يأتوا بأتراك مجلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السودية كلها تركية ...

دفاع الحسين ومخفظاته

وما يجدر بلفت النظر إليه ان رسائل الحسين احتوت دفاعاً مكرراً عن المقترحات والحدود التي وردت في المشروع تجاه ما تضمنته رسائل مكهاوت الجوابية من محاولات لادخال تعديلات عليها وما احتوته من عبارات مطاطة او بالأحرى من مراوغات مقصودة في صدد مستقبل ادارة الدولة وصلة الانكليز بها . ففي رسالته ٢٩ شوال ١٣٣٣ - ٩ سبتمبر ١٩١٥ يقول : « وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطروننا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة . وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسة بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ... » وفي رسالته ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ - ٥ نوفمبر ١٩١٥ يتنازل عن ضم مرسين واذنه ولكنه يقول انه لا يمكنه ان يفعل ذلك في قضية حلب وبيروت وسواحلها لأنها عربية صرف وليس هناك فرق بين المسم العربي والمسيحي العربي الذين هم جميعاً من نسل واحد ؛ وإن المسلمين سيديرون على خطة عمر وسواه من الخلفاء الذين فرضوا معاملة المسيحيين كما يعاملون أنفسهم وفرروا ان لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات ... »

وفي رسالة ٢٩ شوال يقول انه يتوك الآن الاصرار على موضوع الساحل السوري الغربي تقادياً من احداث نزاع في اثناء الحرب بين إنكلترة وحليفها فرنسا ولكنه لن يتوك ذلك بعد انتهاء الحرب . وفي رسالة ٢٤ ذي الحجة يدافع عن وجهة النظر العربية بالنسبة للعراق الذي تحفظ الانكليز بشأن ادارته وصلاتهم به حيث يقول ان العراق قسم من المملكة العربية ، وكان مركز حكوماتها في عهد علي ابي طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وقد انشئت ابينتهم الأولى فيه وعظمت قوتهم فإن العرب البعيدين والقريبين ينظرون اليه نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون بسهولة ان ينسوا تقاليدهم وذكرياتهم . ولذلك اعتقد انه ليس من المستطاع افناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر . وانما رغبة منا في تسهيل الانفاق واعتاداً على عهدكم في المادة الخامسة من كتابكم وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر فقد

نوافق ان نترك لمدة قصيرة الاراضي التي تحتلها الجيوش الانكليزية تحت ادارة انكلترا . ويقول في هذه الرسالة رداً على تلك العبارات المطاطة والمراوغات ان كتابنا المؤرخ في ٢٩ شوال ١٣٣٣ يغيبنا على ما اعتقد عن اعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الاخير بشأن الادارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ان لا يكون كما صرحتم تدخل في الشؤون الداخلية .

كذلك من الجدير بالتسجيل أن الحسين لمح لانكلترا وهو يدفع محاولات تعديل الحدود الغربية من سوريا لصالح فرنسا ومزاعمها ويرفضها اولاً ثم يبدي تحفظاته في صدها بما يمكن أن يكون لصلة فرنسا ببقعة من بقاع سوريا من أثر ضار لمصالحهم أيضاً حيث جاء في رسالته ٢٩ شوال : ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

منافذ المراسلات وأسبابها الصحيحة

ومها يكن من أمر فإن المراسلات وإن كانت انتهت إلى ثمرة إيجابية في نظر الحسين في صدد اعتراف انكلترا باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحت والتي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية فإنها ظلت رغم دفاع الحسين وتحفظاته القومية الصريحة تحتوي منافذ تستطيع انكلترا أن تخرج منها - وقد فعلت ذلك أثناء الحرب وبعدها - بالنسبة للبلاد الشامية والعراقية خاصة .

ومرد هذا في ما نعتقد ضعف الامكانيات السياسية والمادية في الحجاز خاصة والبلاد العربية والأمة العربية عامة بما في ذلك ضعف نضوج الرجال وقوة عزائمهم، وشعور الانكليز بهذا الضعف، وبمحااجة الحجاز خاصة والعرب عامة إليهم في كل شيء حاجة شديدة على أي حال . ولا سيما إن هذه الحاجة وذلك الضعف كان يبدو مرة بعد مرة في رسائل الحسين وعباراته بشكل عجيب .

وبما يتبادر أن ما كان من صيت قوي لبريطانيا وشرفها وعدلها وصدق وعودها قد كان ذا اثر أيضاً في ذلك حيث ظن الحسين أنها سوف تساعد على مساعدة مادية

وأسعة تجعل من العرب قوة فعالة ذات كيان وموقف مؤثر يتيح له تحقيق آماله والتسليم بتحفظاته وأنها إذا خرجت ظافرة بارة بوعودها محافظة على شرفها معه .
وأهل ما كان من مظاهر الحركة العربية وتطورها خلال السنوات السبع قد جعل الحسين وإنجاليه ورجال الحركة الذين اتصلوا به يعلقون آمالاً كباراً على اشتداد حيوية العرب بحيث يساعدهم على تحقيق ما أرادوه بعد أن حصلوا من إنكلترا على ما حصلوا عليه من وعود وعهود .

- ١٦ -

الثورة ضرورة قومية

وعلى كل حال فإن اتصالات الحسين بالانكليز ورغبة رجال الحركة العربية في هذه الاتصالات كانت حركة موفقة من حيث المبدأ بل ومن حيث العمل والنتيجة أيضاً ؛ وان الحسين طيب الله ثراه قد قام في خطوته بواجب عظيم تجاه الأمة العربية في يقظتها الحديثة وأسدى إليها يداً بيضاء مشكورة ، وأخرج القضية العربية بها من حيز الفكر والخيال والأمنية إلى ميدان الحقيقة الواضحة العملية ، وجعلها بارزة المكانة بين قضايا العالم القومية .

ولقد كان موقف الحسين وما أخذه من عهود ووعود وأبداء من تحفظات واعتراضات رسائل قوية في النضال القومي الذي قام به العرب الشاميون والعراقيون بعد الحرب توسلوا بها في مختلف المناسبات وشتى المواقف ، وكانت عاملاً من عوامل ما وصلوا إليه من النتائج الايجابية في هذا النضال . ولو كانت الامة العربية أكثر حيوية وأشد نضوجاً وأقوى بنية مما ظهر منها أثناء الحرب وعقبها لكانت تلك الوعود والعهود والتحفظات والاعتراضات كفيلاً بأن تحقق لهم جل ما كانوا يأملونه .

تعليلات وردود

وما اريد توجيهه إلى الحسين من مسئولية الخروج على الدولة وتصويره سبباً في إنكسارها وتمكين الأجنبي من بلاد الشام والعراق هو دعابة بذلت الجهود في بثها

أثناء الحرب وظلت مستمرة في الأذهان ، وقويت بما كان من خيبة أمل وغدر
 من الحلفاء . فما لا تصح المكابرة فيه ان الثورة العربية لم تكن حاسمة التأثير في
 ما احرزه الحلفاء من نصر في مبادئ الحرب الكبرى الأوروبية والأسبوية ، وإنما
 كانت معاونة ورافدة أسديت مقابل عهود قطعت وما كانت لتعطل هذا النصر
 وكانت مفيدة لقضية العرب في الدرجة الأولى فائدة عظيمة . فلو لم تكن لانتصر
 الحلفاء ايضاً ، وما كانت الدولة العثمانية لتصد في حال بعد انكسار المانيا والنمسا
 العظيمنتين في اوروبا ، ولما كان حينئذ للقضية العربية المكان البارز الذي صار لها
 بين قضايا العالم بعد انبعاثها بعشر سنين فقط ، ولحرم العرب من وسيلة قوية في
 نضالهم القومي انتفعوا بها في الدعاية والحجاج وفي إثارة العاطفة والاحقاد القومية ،
 وفي نيل ما نالوه من اهدافهم القومية في حقبة قصيرة ، ولكانت بلادهم اشد بلاء بما
 كانت ، وكان سجل على الحركة العربية عار تقصير كبير بعد ان ظهر من بوادرها
 ما ظهر من حيوية ونشاط وبعد مدى ، وبعد ان ظهر من الاتحاديين ما ظهر من
 القسوة والبغي وسوء النية في التنكيل والنشريد . وحتى على فرض احتمال انتصار
 الالمان والدولة العثمانية فان الثورة لم تكن لتفقد مغزاها القومي بل ولعلها لم تكن
 تفقد أثرها الايجابي في وجوب إرضاء العرب وتطمين رغباتهم وأمالهم من جهة ، ولما
 كانت البلاد العربية على كل حال اقل بلاء وسوء آ من جهة اخرى إن لم تكن أشد ،
 بل واقد كان من المحتمل ان يكون الاتحاديون أجراً على البطش والتنكيل والتصرف
 في العرب وبلادهم بما يتوه لتوطيد الاستعلاء العنصري التركي والقضاء على البقطة
 العربية القومية فضلاً عن ما كان من احتمال امتداد ايدى الالمان الحديدية إليها بالاستعمار .
 كذلك بولسغ كثيراً في توجيه النقد للحسين لما كان من منافذ وثغرات في
 مراسلاته ، وفي النتيجة التي انتهت إليها . ونعتقد أن هذا النقد قد صدر بروح ما
 بعد الحرب ايضاً ، ونتيجة لما كان من غدر الانكليز وختلمهم وخبية الآمال التي
 علقها رجال الحركة العربية على انتصار الحلفاء . فقد اجتهد في سد هذه المنافذ
 والثغرات اشد اجتهاد بل وكان فيه قوي البصيرة نافذها ، ولقد غضب هو واولاده
 حينما بلغهم أخبار اتفاقية انكلترا وروسيا وفرنسا في تقسيم بلاد الدولة العثمانية



الملك فيصل في الصحراء اثناء الثورة العربية

ومناطق النفوذ التي شملت بلاد الشام والعراق ثم اخبار اتفاقية سايبكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا على بلاد الشام والعراق ثم أخبار نصريح بلفور ؛ وكانت هذه الاخبار قد أرسلت من قبل القائد التركي جمال باشا الصغير إلى الامير فيصل في العقبة في اوائل سنة ١٩١٨ ، حتى انه جرت محاولات صلح منفرد بين الترك والعرب من قبل هذا القائد مع فيصل نتيجة لذلك . وكان من أثر هذا ان ارسل الانكليز عهداً جديداً بتاريخ ٨ شباط ١٩١٨ هدى من ذلك الغضب ويؤكد إخلاصهم للقضية العربية وما قطعوه من عهد ، ويعزو ما بلغهم إلى دسائس الترك ولما انتهت الحرب وظهر منهم ما ظهر من غدر وختل ونأمر ظل الحسين ينمى عليهم ذلك ويطالبهم بالوفاء ، ويرفض ما يعرضونه عليه من عروض لم تحتو تحقيق العهود و ابي أن يعقد معهم معاهدة يضمن بها عرشه ، وفضل البقاء بدون حليف وسند الى أن ضاع ذلك العرش وخرج من بلاده شريداً .

ولقد كان الانكليز أجراً على الغدر وأوغل في المراوغة والقحة من ان يتقيدوا بالنصوص حتى لو كانت محكمة خالية من الثغرات ما دام العرب لا يملكون القوة المؤيدة والعزيمة الشديدة والبنية القوية بما هو وحده الذي يساعدهم على تحقيق ما ارادوه من النصوص ، ولا سيما كان فيها من التحفظات ما فيه الكفاية او شيء منها . وهل الحسين الا من غزية ان غوت غوى وان توشد رشد !!

ويذكر الذاكرون ان فصائل الثورة التي دخلت الشام تحت لواء فيصل لم تلبث ان انحلت ولم يبق منها الا بضع عشرات من الحجازيين ، وان الفصائل التطوعية الجديدة التي الفت بعد ذلك لتكون حاميات لم تتجاوز الثلاثة آلاف ولم يكن لديها من السلاح والعتاد ما يساعدها على اي حركة ثورية ناجحة ضد قوى الانكليز والافرنسيين التي كانت تحتل انحاء الشام من الغرب والجنوب فضلاً عن امكان تزييد عددها ، وما كان يتطلب هذا من اموال وفيرة غير ميسورة . ولقد كان الانكليز الذين موّتوا الثورة يضمنون اشد الضن فيما يسمونه من سلاح وعتاد بما كان دائماً مثار الشكوى الشديدة من الحسين وانجابه وضباط ثورته . أما المال فقد كان يعطى الكثير منه للقبائل البدوية في الحجاز والشام لضمان عونها او كبح شرها . وما كان هذا ليضمن استمرار بقاء جيش ثوري ذي بال يجعل الانكليز وغير

الانكليز بحسبون حسابهم قليلا او كثيراً . واو كان شيء من هذا لكان له اثر ايجابي في بقاء العهد الفيصلي في الشام الداخلية على الأقل مساعداً بما كان في اليد من عهود وتحفظات ؛ ولا سيما ان الحرب كانت قد انتهت قوتى الحلفاء ولم يكونوا ليقدموا على عمليات حربية ضد قوى عربية فيها بعض الغناء والكفاية . والامثلة التي ضربها الكهاليون ما تزال قائمة شاهدة وخاصة بما كان من مسارعة فرنسة الى التهادن معهم . ولعل هذا النقص من أهم ثغرات الثورة العربية .

- ١٧ -

امر الثورة وسيرها في الحجاز

ولقد آتت ثورة الحسين ثمرتها العاجلة بالنسبة للحجاز ؛ فقد امكن التغلب على القوى التركية بسرعة في مكة ، وإن كان التغلب على بقيتها في الانحاء الحجازية الاخرى قد احتاج إلى بعض الوقت والجهد ، حيث جرت معارك عديدة ، وحيث لم تسقط حدة إلا في ٤ تموز ١٩١٦ ، والطائف في ٢٢ أيلول ١٩١٦ ، وحيث حاصرت القوى التركية في المدينة إلى ٧ كانون الثاني ١٩١٩ ، غير أن سلطة الحسين كانت قد توطدت قبل ذلك بكثير في أنحاء الحجاز .

واقدم اطلقت الطلقة الاولى في ٩ شعبان ١٣٣٤ - ١٠ حزيران ١٩١٦ واعلن استقلال الحجاز عقب ذلك بقليل ، وبعد التغلب على الحامية التركية في مكة . وقد جاءت الاشارة الى ذلك في المنشور الذي اذيع في ٢٥ شعبان ١٣٣٤ - ٢٦ حزيران ١٩١٦ حيث جاء فيه :

« ولما كان امر حماية الحجاز من هذا البغي والعدوان ، واقامة ما فرض الله فيه من شعائر الاسلام ووقاية العرب والبلاد العربية من عافية الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية ، كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام وقطع كل صلة بهؤلاء المتغلين السفاكين للدماء الناهبين للأموال ، وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للهبوط بأمر استقلالها بعد ان ضربت على أيدي عمال الانحاديين استقلالاً تاماً مطلقاً بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة

مداخلة أجنبية ، او تحكم خارجي ... الخ . . .

وقد ظل الحسين يحتفظ بلقب أمير مكة إلى تاريخ ٦ محرم ١٣٣٥ - ٣ كانون الاول ١٩١٦ ؛ وفي هذا التاريخ بويغ ملكا على العرب والفت وزارة رسمية ، وابلغ الأمر لوزراء خارجية الحلفاء ، فاعترضت انكلترا وفرنسا على اللقب ولم تعترفا إلا بلقب ملك الحجاز . وكان هذا مثار مراسلات وشكوى ولكن الأمر وقف عند هذا الحد ، مما مرده الى ما ذكرناه قبل من الشعور بالضعف والحاجة الشديدة . وقد كانت هذه الحادثة من أوليات ما صدم به الحسين من الانكليز بعد اعلانه الثورة . وقد كان الملك عبد العزيز من المعترضين بشدة على اللقب أيضاً . على ان بما لا ريب فيه أن موقف بريطانيا وفرنسا كان متصلا بما بيت من نوايا ومآرب في صدد البلاد العربية الاخرى التي دخلت حدودها في رسائل الحسين - مكماهون . ولا سيما ان معاهدة تقسيمها الى مناطق نفوذ واستعمار بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وخاصة معاهدة سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا قد ابرمت قبل ذلك حيث ابرمت في شهر مايس ١٩١٦ .

حملة فيصل الشمالية وسيرها

أما خارج الحجاز فالحملة الثورية الوحيدة التي تحركت منه هي الحملة الشمالية التي قادها فيصل ، والتي تكتل فيها من التحق بالحجاز من ضباط العرب وشبابهم من أبناء الأقطار الشامية والعراقية . وقد تحركت في أوائل سنة ١٩١٧ متجهة نحو البلاد الشامية ، وظلت تقوى بمن كان ينضم اليها من البدو وضباط العرب وشبابهم ورجال الدروز، وتنازل القوى التركية وتعطل مواصلاتها ، وتوقع فيها الحسائر ، وتقدم رويداً رويداً تقدماً موازياً لسير الحرب في الجبهة الجنوبية من بلاد الشام - اي سيناء وفلسطين - التي كانت بقيادة النبي قائد الحلفاء في الوقت نفسه في هذه الجبهة والذي جعلت حملة فيصل تحت قيادته العليا كذلك ، فاحتلت شمال البلقاء وحموران ودخلت دمشق الشام في أول تشرين الأول ١٩١٨ ، وأتمت احتلال بقية سوريا الداخلية في برهة وجيزة .

وبما وقع ان الانكليز لأمر بيتوه وأوا أن يبرزوا في سير حركة الحملة فسارعوا الى ارسال بعض فصائلهم لتدخل دمشق قبل دخول فيصل ، ولتحتل مع الفصائل العربية سائر سوريا الداخلية أيضاً مما أثار العجب والتساؤل .

وكانت الجبهة العثمانية قد انكسرت في فلسطين أمام حملة الحلفاء ، وأخذت الكتائب التركية تنسحب بسرعة نحو الشمال تتبعها فصائل الحلفاء من الجنوب وفصائل الثورة من الشرق الجنوبي وتوقع فيها الحسائر حتى تم الانسحاب قبل دخول الفصائل الانكليزية والعربية لدمشق .

وقد أعلنت السلطات العثمانية وهي تنسحب أنها تترك أمر البلاد لأهلها وأقامت حكومات محلية موقفة لحفظ الأمن وسد الفراغ ؛ فقامت حكومة الأمير سعيد الجزائري في دمشق وحكومة عمر الداعوق في بيروت على هذه القاعدة .

ولقد حاول فيصل أن يشمل لبنان بسلطته العربية فأرسل شكري الأيوبي ممثلاً عنه إلى بيروت ومعه محمد رستم حيدر والدكتور أحمد قدري ليساعده ، فاستلم الحكم فيها من عمر الداعوق ، ولبت فيه نحو اسبوع والأعلام العربية تخفق في أجواء بيروت وأحاء لبنان والسواحل السورية الأخرى . وقد كنا في هذه الفترة في بيروت فشهدنا هذا المنظر والعيون تفيض بدموع الفرح والنفوس تجيش بعواطف الحماس وكبار الآمال . وقد كان الاسبوع الذي سبق دخول فيصل لدمشق اسبوعاً حائراً . كان الناس يتسامعون فيه عن اقتراب فيصل وقصائله والمسلمون والشاعرون بشعور القومية من النصارى يترقبون الأخبار ترفب المتحمس المتهبج ، حتى لقد أرسلت حكومة الداعوق بعض الرسل في البر والبحر لتأتي بالأخبار وتأتي بشكل علم الثورة العربية . وكان غير الشاعرين بشعور القومية لا يدرون ما يفعلون كأنما كانوا موعودين بشيء آخر غير العلم العربي والحكم العربي . على أن فرحة العرب كانت قصيرة الأمد جداً ؛ لأن الفصائل الافرنسية ما لبثت أن قدمت وصدرت الأوامر لشكري الأيوبي بطي الأعلام والانسحاب ، وعلل هذا بالضرورات الحربية ؛ ولا سيما ان البلاد جميعها سميت بأسم بلاد العدو المحتلة ، وجميع القوى فيها كانت تتبع قيادة النبي العامة . وكانت هذه الحادثة من الصدمات الأولى التي صدمت بها الحركة العربية عقب الحرب ، والتي كانت مظهراً من مظاهر الغدر المنت لها أو حلقة من حلقاته .

اما العراق فقد كان الأنكليز احتلوا أكثر أقسامه اثناء الحرب ، فلم يدخل في اهداف الحملات العربية الثورية . وكان المقدر له أن تنبثق الثورة التحريرية منه بعد سنتين أو أقل من انتهاء الحرب اضجاجاً على ما ظهر من نوايا الانكليز الاستعمارية فيه .

ولقد كان بما فكر فيه إزال قوى عسكرية حليفة الى الاسكندرونه ، واشغال نار الثورة في الشام بواسطة ضباط العهد حالما تشتعل الثورة في الحجاز استفادة من وجود عدد كبير من ضباط العرب وجنودهم فيها نتيجة للنفي العام ، حيث كان هذا بما اتفق عليه رجال الحركة مع فيصل . غير ان الحلفاء لم يتفقوا على تحقيق الفكرة ، وكانت سياسة بعثرة ضباط العرب وجنودهم سير فيها أيضاً فكان ذلك من عوامل الانصراف عن هذه الخطة .

- ١٨ -

أثر الثورة في الاقطار العربية

ولقد كان لانفجار الثورة في الحجاز اثر عظيم في افكار العرب وأوساطهم بالرغم مما حاولته السلطات التركية من تهوين شأنها اولاً ، ومن إثارة الحملات الشديدة والدعايات المضادة ضد القائمين بها ثانياً ، ولا سيما انها جاءت والرعب قد استحوذ عليهم وخلع قلوبهم من الطاغية جمال بما كان من قسوته وبغيه وجبروته في شتى عدد كبير من رجالاتهم وسجن وتشريد عدد كبير آخر ، ونجويج الساحل السوري ولبنان نجويجاً اليما ، وبدور بوادر حركة تشريد واسعة ذكرتهم بما كان من الانعاديين نحو الارمن عقب اعلان الحرب ، وكانت من العوامل القوية في توسيع مدى انتشار الفكرة العربية في مختلف اوساطهم ، واتجاه الأذهان والقلوب اليها والاهتمام لها ، وتداول الأحاديث مما يمكن أن يكون للعرب بنتيجتها من حياة جديدة فيها المجد والعز والقوة والنهوض ، وفيها الاستقلال والحرية والوحدة وقد كان للشبان المنورين وخاصة للذين لهم صلة بالحركات والتشكيلات اثر ايجابي في ذلك بما كانوا يبثونه من الدعوة الى تأييد الثورة والاتحاق بها وبث أخبارها

بين الناس وتزييف الدعاية ضدها والتنويه بجبن ونذالة وخيانة المندمجين في هذه الدعاية ، وتصوير ما سوف يجني العرب من ورائها . وقد ساعد على ذلك سحب جمال بعد نشوبها بقليل والكف عن حركة الاضطهاد والاعتقال والتشريد .

وهكذا يصح ان يقال ان الفكرة العربية في ادوارها الثلاثة في عهد الدولة العثمانية والتي لم تستغرق من الوقت اكثر من عشر سنين (١٩٠٨ - ١٩١٨) قد خطت خطوات واسعة ، سواء من حيث مدى الانتشار او من حيث الهدف وسعة شموله وتطوره ، او من حيث الحركة والنشاط في سبيل ذلك ، او من حيث اراقة الدم الزكي على أعواد المشانق او في ساحات القتال ، او من حيث الاستفادة من القرصة السالحة والأقدام عليها بالعزم والتصميم .

وليس من ريب في ان هذا النجاح مظهر من مظاهر القوة التي امتازت بها عناصر القضية العربية على ما أسلفنا ، ودليل على الحيوية القومية الكامنة في العرب التي لم تكد تثار حتى ثارت ، وتدعى حتى استجابت الى الدعوة منذ اللحظة الأولى وأخذت تعمل وتنشط في شتى المجالات مما يندر ان يكون التاريخ قيد له مثيلاً في مثل هذا الامد القصير جداً ، ولا سيما إذا لو حظت المدة الطويلة جداً التي تقرب من الف عام ، والتي ظل العرب يتردون فيها من درك الى درك ، ويتعرضون لشتى الارتكاسات ويرضخون لتحكم الغريب ، ويستغرقون في سبات عميق من الغفلة والجهل والتسليم .

- ١٩ -

استدراكات وتعليقات

ومع ما قلناه آنفاً نرى ان الواقع والانصاف يوجبان ان نستدرك بعض الأمور: فأولاً : أن هذه الصورة التي رسمناها تنطبق في الدرجة الاولى على الاوساط النيرة المثقفة من السياسيين والشبان والتي كانت ضيقة النطاق كثيراً ، وفي الدرجة الثانية على من كان يتصل بها من سكان المدن وخاصة الكبيرة منها ، وإن سواد الشعب العربي لم يتحسس تحسناً قوياً يسمح بالقول ان الفكرة قد صرت اليه ،

وكان لها تأثير فعال فيه خلال السنوات العشر المذكورة . وكل ما كان بالنسبة
للسواد ان الحركة التي كان يضطلع بها المتنورون ، والدعوة التي كانوا ينشطون
اليها قبل اعلان الحرب كانتا لافتتين للذهن ومنبهتين من السبات ، وان ما كان
من احداث بعد اعلان الحرب سواء في سياق حركة التنكيل والتمع ؛ او في
سياق اعلان الثورة الهاشمية واخبارها قد قوى هذا الالتفات والانتباه .

ونحسب هذا طبيعياً . فسواد الشعب الذي يسكن قسه الأعظم البلاد
الصغيرة والقرى والبوادي كان بمثابة المنعزل عن الحركات السياسية ونياراتها
وأخبارها .

وثانياً : ان نفوذ الفكرة وقوتها في المتنورين والسياسيين والشبان كانت
متفاوتة ؛ فبينما كانت عند فريق قليل منهم عقيدة تصل الى دفع صاحبها الى اقتحام
الاطار والتضحية بالنفس والمال ، وكانت شغلهم الشاغل ، كانت عند فريق ثان
وهو الاكثر كلمات تلاك في الافواه دون أن يكون لها أثر نافذ في القلب ، بل
وكانت عند فريق ثالث منهم أيضاً وسيلة استغلال وجاء ومنصب وتفاخر فحسب .

وثالثاً : ان فريقاً من رجال وشبان وضباط العرب الذين يعدون في الطبقة
المتنورة وقضوا مدة طويلة في وظائف الدولة ومختلف بلادها واندمجوا في جوار الدولة
وبنيتها حتى صار بعضهم غريباً عن العرب والعروبة واللغة العربية أو كالعريب لم
يستشعروا بالفكرة ووقفوا منها موقف المتحفظ ومنهم من وقف منها موقف المتجهم
او العدو المهاجم .

ورابعاً : ان اكثر طبقة الوجاه والاعيان الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو
موظفي الدولة وأن يمارسوا الوظائف الحكومية والادارية الدائمة او الموقته ،
والفخرية وغير الفخرية كجالس البلديات والادارة والمحاكم والتخمين والضرائب
والمعارف وغيرها ، وأن يستمدوا منها وجاهتهم التي كانت تكفل لهم المنافع المالية
وغير المالية ؛ وكذلك اكثر الذين هم في عداد هؤلاء من المحافظين والتقليديين
والمشايع وخاصة ذوي المناصب من هؤلاء - والطبقتان لاتعدان من سواد الشعب
بل من الطبقات المنفتحة ذات الشأن - لم يستشعروا أيضاً بالفكرة ، ووقفوا منها
موقف المتحفظ ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم .

فهذه الطبقات التي كان مفهوم الوحدة عندها هو الوحدة الدينية الاسلامية والتي كانت بتأثير القرون الطويلة التي قضاها العرب والتورك في جو تاريخي وسياسي وعاطفي واحد فاندجحت في جو الدولة العثمانية راضية مطمئنة رأت في الدعوة الى الفكرة القومية العربية وأهدافها بدعة مؤدية إلى اضعاف الوحدة الدينية او هدمها أولاً ، ورأتها على هذا الاعتبار تدخل في شمول ما أثر من التحذير من الدعوة الى العصية ثانياً ، فوقفوا منها الموقف الذي وصفناه ، وأخذوا أو أخذ كثير منهم يغمزون الداعين اليها والقائمين بها من المتنورين والشبان ، ويومنونهم بالزندقة والاحاد وغير ذلك من التهم التي كانت راجحة شائعة في تلك الايام ؛ بل ومنهم من كان يعين الأتراك عليهم ، ويشتمون بما يقع عليهم من اضطهاد ويفتون بحل دمهم ، ويحاولون تأليب السواد عليهم ، ويدجون المقالات وينظمون الاشعار الهجوية والشامته فيهم ؛ ومنهم من كان يفعل ذلك تزامناً الى السلطات واستجداء لبرها أيضاً .

وبما يجدر ذكره أن الاتحاديين الذين اعتنقوا الفكرة القومية ونشروها ووقفوا من الخلافة الاسلامية والدين الاسلامي موقف التهوين بل والتهديم ، وقاوموا بل وبطشوا في مناوئتها منهم من لدن السلطان عبد الحميد وأعوانه إلى رجال الدين والمحافظين والتقليديين والمشايع لم يقصروا في استثارة هذه الطبقات من العرب ضد القائمين بالفكرة العربية وحركتها بمختلف الاساليب والرشاوى قبيل اعلان الحرب ثم وسعوا جهودهم في هذا السبيل بعده ، وخاصة بعد نشوب الثورة الهاشمية . ولا تزال نذكر الفتاوى التي كانوا يستصدرونها من علماء المسلمين في بلاد العرب ، والمقالات التي كانوا يستكتبونها لبعض كتاب العرب ضد الحركة القومية وضد الثورة الهاشمية . وتلك الاجتماعات التي كانوا يدعون الى الخطابة فيها بعض سياسيي العرب وخطبائهم الذين وقفوا إلى جانب تلك الطبقات في التجهم والمناوأة ؛ وتلك التشكيلات التي كانوا يجيطنونها بعنايتهم وبذلهم في صدد توثيق الوحدة الاسلامية والمظاهر الاسلامية في الظاهر ، وفي صدد مقاومة الدعوة القومية وتزييف أهداف الثورة واحباطها واطعاف أثرها ، والتهوين بما وقع على رجال الحركة من بغي وقسوة في الحقيقة وواقع الامر .

ومن الغريب الجدير بالتسجيل كظاهرة من ظواهر التناقض الاخلاقي والنفسي ،

والاستغراق في التقليد والتسليم والرضا بما كان ويكون ، وعدم الاستشعار بالعاطفة القومية ان هذه الطبقات التي اندمجت في جو الدولة والخلافة العثمانية ، ولم تستشعر إلا بالعاطفة الدينية وسياسة الوحدة الدينية كانت تلعن الاتحاديين الذين صدر منهم ما صدر ضد الخلافة والخليفة والدين ، والذين اعتنقوا الفكرة القومية التركية وسعوا جاهدين في سبيل توطيد الاستعلاء العنصري التركي على العرب . ولم يمنعهم هذا من الاستجابة لتعريض هؤلاء الذين كانوا يلعنونهم على بني قومهم الذين أثارتهم تصرفات الاتحاديين ، وجعلتهم يسرون في طريق الفكرة والدعوة العربية .

على أن هذه الجبهة القوية التي تضاف إليها الاتحاديون وأموال الدولة ومناصبها وجاهاها مع الطبقات النافذة المؤثرة المذكورة من العرب لم يكن من شأنها أن تخنق الفكرة أو توقف سير حركتها . فقد كانت طبيعة الفكرة وما بدا من قوة القابلية العربية للاستجابة السريعة إليها أولاً ، وحركة التشكيل الواسعة القاسية ثانياً ، وتصرف الاتحاديين مع العرب وحقوقهم ثالثاً ، وانتشارها في الأتراك رابعاً ، عوامل قامت في وجه هذه الجبهة وحملاتها . غير أن بما لا شك فيه كانت ذات أثر غير يسير في بقاء كثير من مرموقى العرب ونافذهم واعيانهم وموظفيهم ومنتورهم وعلمائهم في موقف المتحفظ المتجه من الفكرة العربية وحركتها ، وفي إقامة العراقيل في طريقها ، وببلبة الأفكار في صدها ، كما أن آثارها ظلت فيهم مستمرة مدة غير قصيرة بعد انتهاء الحرب ، بحملهم الضغينة على الملك حسين وثورته والفكرة القومية ودعاتها ، بل ولقد تعدى أثرها بلاد العرب الى بلاد الهند فكان لها مثل هذه الآثار في اوساط الهنود المسلمين ايضاً .

ومع ذلك فان من الحق أن يقال إن هذه الآثار لم تكن ذات اثر ايجابي بعد نهاية الحرب ، وإنما ظلت ضمن نطاق الجدل والذكرى . فالبلاد العربية والأمة العربية صارت بعد الحرب أمام وقائع وأحداث لا يحيد عنها ، فهي منفصلة عن الأتراك ، ولم يعد في هؤلاء رغبة أو مطمح فيها ، وقد انتهى أمر الخلافة وكثير من المظاهر والتقاليد الاسلامية إلى ما انتهى اليه على يد الكمالين ، أو صار الكلام في الوحدة السياسية الجامعة بين العرب والترك لا يحصل له في مجال العمل ، واضطر

العرب جميعهم راضين أو كارهين الى الانسياق مع التيار الجديد ، والتكيف بالواقع والسير فيه بما هو المتلائم معه نشاطاً وجهاداً ودعوة ونضالاً. ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن ما كان من غدر حلفاء العرب ونكثهم وسلوكهم الاستعماري الباغى ، وتمجرتهم بلاد العرب تلك التجزئة التي كان فيها الويل والشر على العرب وكيانهم وآمالهم واقتصادياتهم ، ورميهم العرب بالاضافة الى هذا كله باليهود وصيهم على رؤوسهم بلاء القضية الصهيونية والسياسة الصهيونية التي كانت منذ الأصل تراءى فيها الاخطار العظيمة عليهم كان عاملاً كبيراً بل العامل الاكبر في استمرار آثار تلك الحملات إلى ما بعد الحرب بمدة غير قصيرة، بل الى ما بعد الانقلاب التركي الكمالي الذي جرف كل شيء يمت الى تلك الحجج والمجادلات .

